لقاء على قارعة الحلم

مجموعة قصصية

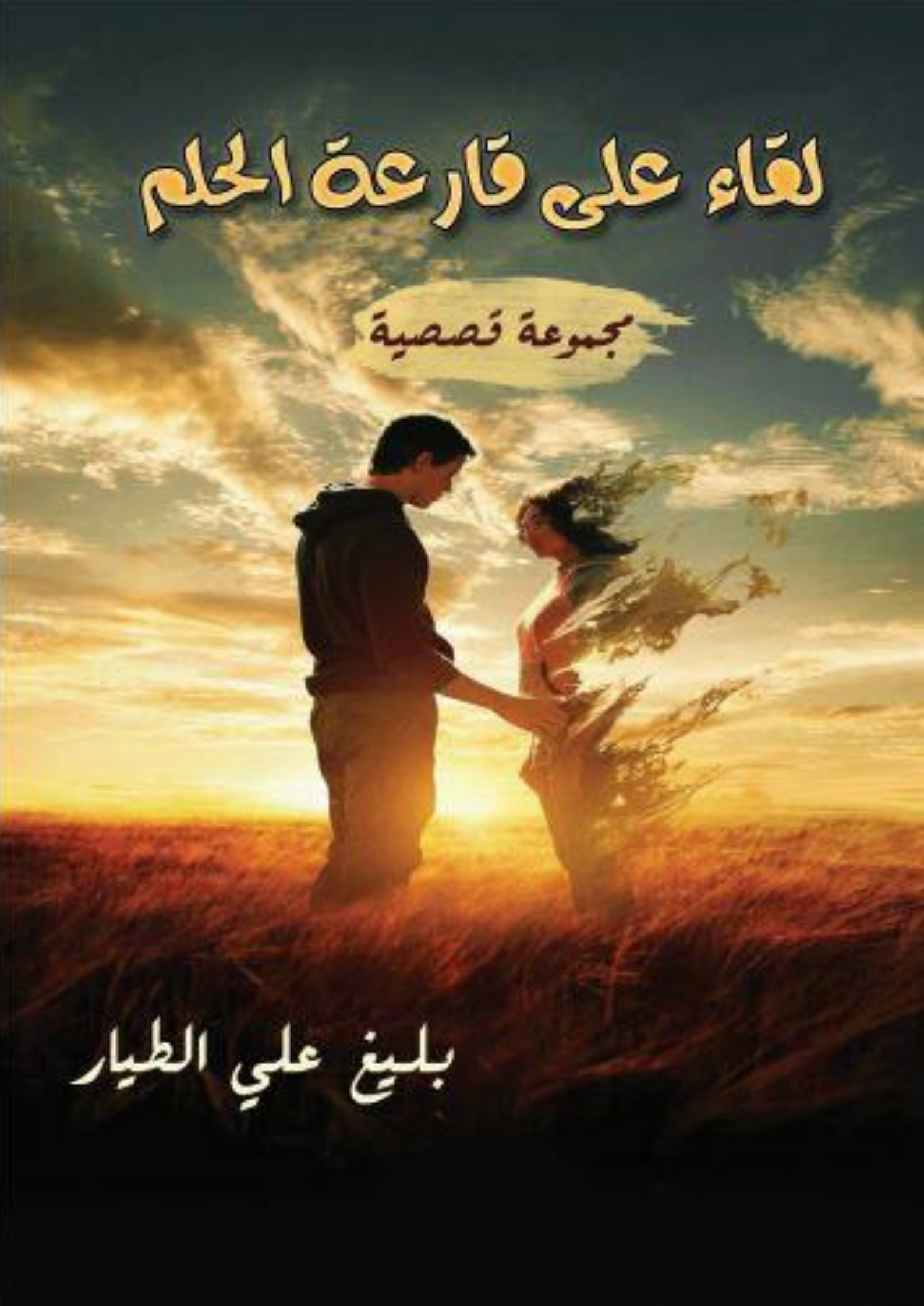

بليغ علي الطيار

لقاء على قارعة الحلم

بليغ الطيار

©جميع الحقوق محفوظة لدى المؤلف.

عنوان الكتاب: لقاء على قارعة الحلم.

تأليف: بليغ علي الطيار. (insta:baleeg7)

نوع الكتاب: مجموعة قصصية.

عدد الصفحات: 127 صفحة.

التنسيق الداخلي وتصميم الغلاف: فهمي عبدالمعز.

(insta:fahmybook) (whats:+967715933986)

يسمح بنشر محتوى هذا الكتاب بأي شكل من أشكال النشر الإلكتروني فقط مع تضمين وسم: (#لقاء_على_قارعة_الحلم).

ولا يجوز اقتصاص أي جزء من هذا الكتاب بهدف إهدار حقوق الملكية الفكرية أو إعادة إنتاجه بشكل مادي أو معنوي إلا بموافقة المؤلف.

الإهداء:

إلى عينيها... وحبّات البَرَدْ!

وإلى قُرّة العين... بُرهان الحبّ!

مدخل:

"إنّ مجرد كون العقل البشري لا يستطيع تخيل حدوث
شيء... لا يعني أن ذلك لن يحدث!"

دان بروان

"أي بني.. الكلمة ليست مجرد حروف تخطها على الورق.. إنها كائن حي.. من لحم ودم وروح.. ما أكثر الكلمات التي تولد ميتة!! تقرأها أو تسمعها فلا تستشعر فيها وهج الحياة. وحرارة الشوق. وهناك كلمات تنطلق كالسهام. أو تحرق كالنار. أو تسيل كالبلسم الشافي. أو تبعث في النفوس خامد الآمال. أي بني.. اسأل نفسك.. من أي نوع أنت؟ ولماذا كتبت؟ ولمن توجه الكلمات؟ وللكلمة دائماً روح تبعث فيها الحياة.. وروح الكلمة الفعل.. وبين القول والفعل مسيرة طويلة، وجهاد مرير.. فأين موقعك يا فتى في تلك المسيرة المحفوفة بالدموع والعرق والسهر؟".

نجيب الكيلاني

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف خلق الله أجمعين أما بعد:

عزيزي القارئ: إنّ هذا الكتاب الذي بين يديك هو أول عملٍ لي، وهو عبارة عن مجموعة من القصص التي كتبتها في فترات متباعدة، وشاء الله لها أنْ تجتمع هنا.

حاولتُ قدر الإمكان أنْ تخرج القصص بلغة سهلة وسَلِسَة حتى يصل المغزى والمعلومة إليك بدون أن تُرهقَ تفكيرك.

ستجدُ في هذه القصص التي بينَ يديك الكثير من الأحلام والكثير من الكتب، ستجدُ الحرب والألم، ستجدُ السلمَ والأمل، والفرَح والطموح، وستشربْ من ينابيع المحبة مع وجبةٍ تاريخية دسمة!

عزيزي القارئ: لعله منَ الواجب أنْ أخبركَ أن هذه القصص التي بين يديك رابطها الوحيد هو الخيال، الخيال والأحلام، ولذلك كان اسم الكتاب!

والله ولي التوفيق

بليغ الطيار

أحببتها، وبها اكتفيت!

بجانبِ رفٍّ مليءٍ بالكتب، تعلوه لوحةٌ كُتب عليها "وصلَ حديثاً"، داخل إحدى المكتبات في حيّ الزمالك، ثلاثُ صديقاتٍ يتصفحنَ الكتب، ورابعةٌ على بعد خطوات تجلسُ على الكرسي في انتظار صديقاتها، يبدو أنها مُتعبة، أو أنّ شيئا ما يشغلُ تفكيرها! وقعتْ يدُ إحداهنّ على كتابٍ ذو غلافٍ جذاب، قامتْ بتقليبِ الصفحات بشكلٍ سريع، من اليسار إلى اليمين، وتوقفتْ عند الإهداء:

- أسيل، مريم، انظرا ماذا كُتب هنا!
- واو! (أسيل ومريم بصوت واحد)
- غيداء تعالَي إلى هنا. (قالت أسيل)
- دعيني وشأني يا أسيل. (قالت غيداء)
- دقيقة منْ فضلك يا صاحبة الاسم الجميل! (قالت مريم)
- ماذا تهذينَ يا مريم؟ (سألت غيداء)
- حسناً دعوها وشأنها يا بنات. (قالت هدى)
- دائما أقول أنكِ أعقلهنّ يا هدى! (قالت غيداء)

ذهبتْ أسيل ومريم إلى حيث تجلسُ غيداء، قامتا بسحبها من ذراعيها وتوجّهنَ إلى رفّ الكتب الحديثة.

- ماذا تُريدَان مني؟ (قالت غيداء)
- افتحي هذا الكتاب. (قالت أسيل)

- هيا افتحيه! (قالت مريم)

فتحتْ غيداء الكتاب وتوقفتْ عند ذلك السطر الذي يتوسط صفحة الإهداء، قَرَأَت السطر مراتٍ كثيرة، وأخذها خيالها إلى البعيد، ثم أَغْلَقَت الكتاب فجأةً وأعادته إلى مكانه، وأردفتْ قائلة:

هيا يا بنات لنذهب إذا انتهيتنّ.

- هذه البنت مجنونة بحقّ! (قالت أسيل)
- لو كنت مكانك سأشتري الكتاب و... (قالت مريم)
- دعوها وشأنها يا بنات! (قاطعتها هدى)

عادتْ غيداء إلى مكانها السابق وهي تفكر فيما قالته مريم، هل حقاً يجب عليها أن تشتري الكتاب، ولماذا؟ قد يكون الأمر محضُ صدفة أو مجرد تشابه، لا يعني ذلك أنها المقصودة من – بين الكثيرات – بتلك السطور! أكملَت الفتياتُ جولتهنّ وهممنَ بالمغادرة، وغيداء ما زالت تفكر، وبعد تجاوز البوابة توقفتْ؛ تحسستْ حقيبتها وقالت:

- لقد نسيتُ شيئاً!
- ماذا نسيتِ يا غيداء؟ (قالت مريم)
- انتظرنني سأعود حالاً. (ردّت غيداء)
- لنعدْ سوياً. (قالت أسيل)
- لا لا دقيقتان فقط وسأعود. (قالت غيداء وهي تعود إلى الداخل)

توجهتْ غيداء إلى رفّ الكتب الحديثة؛ أخذت الكتاب، دفعتْ قيمته، وأخفتهُ في حقيبتها، وأكملتْ طريقها.

في الليل، أغلقتْ غيداء غُرفتها وجلستْ تتصفحُ الكتاب، وتتنقّل بين النصوصِ كنحلة، وكلما قرأتْ نصاً خُيّل إليها أنها المقصودة، وحين تعود إلى صفحة الإهداء تُصبح شكوكها شبه مؤكدة! أكملتْ قراءة الكتاب، ثم أعطتْ ظهرها للسرير، وفردتْ ذراعيها كأنهما جناحان، وتمنتْ لو أنها تلتقي بكاتبِ هذه السطور! خطر في بالها الكتاب، رجعتْ إليه لعلّها تجدُ شيئاً يتعلقُ بالمؤلف، قرأت اسم الكاتب وبحثت عنه في "جوجل" لكنها لم تجدْ شيئاً، قالت في نفسها: "يبدو أنه كاتبٌ ناشئ، ليس له مؤلفات سابقة"، وأردفتْ: "ناشئ أو العكس لا يهم، المهم أنْ أجده! لنبحثْ في الفيسبوك ربما نجد شيئا!" وجدتْ غيداء صفحاتٍ كثيرة تحمل نفس الاسم، لكنها لم تعرف بالضبط أي واحدة هي خاصةُ ضالتها! تنهدتْ وقالت في نفسها: "ماذا أفعل أنا، وعن ماذا أبحثُ بالضبط؟ أظنني جننتُ حقا! إنني أبحثُ عن سراب، ثم وإنْ كان حقيقةً، ألا يمكنُ أن يكون هذا الرجل متزوجاً، أو لديه حبيبة؟" حاولتْ غيداء إقناع نفسها بالتراجع، لكنها وجدت نفسها مهتمة كثيراً بهذا الكاتب الذي حركَ مشاعرها، وبعثر أوراق الحنين في داخلها! قامتْ بالدخول إلى معظم الصفحات، إلى أنْ وجدتْ صفحةً مليئةً بالنصوص الجميلة والتي توحي بأنّ مالكها كاتبٌ جيد ويستحقّ أن يُمنح احتمالا، ولكنّ الأمر الذي فاجأها أنّ الصفحة خالية منَ النشاطات قريبة المدى، والأكثر من ذلك أنّ صاحبها شابٌ يمني! زادَتْ حيرة غيداء

وشغفها، وكانَ لا بد لها من فعل شيء، خطر في بالها أنْ تتواصل مع صديقاتها لكنها خافتْ منْ أنْ يُشهرنّ بها فتراجعت!

استقر الأمر عندها على أن تتواصل مع هدى، فهي أقلّ طيشاً من أسيل ومريم!

- مرحبا هدى.
- أهلا غيداء.
- أنت تعرفين يا هدى أنك أعزّ صديقاتي وأنني لا أخفي عليك شيئا، وأنكِ مستشارتي الخاصة!
- ادخلي في الموضوع مباشرة، ماذا فعلتْ صديقتي هذه المرة!؟
- هدى! قبل أنْ أتحدث، أقسمتُ عليك ألا تعرف أسيل ومريم شيئا عن هذا الموضوع!
- حسناً وعد. تحدثي.
- هل تذكرين ذلك الكتاب الجميل الذي أريتموني إياه في المكتبة، لقد تعذرتُ بأنني نسيتُ شيئاً وعدتُ لأشتريه.
- آه كم أنتِ مجنونة، ولماذا أخفيتِ ذلك عنا؟
- تتحدثين وكأنكِ لا تعرفين الصبايا!
- حسنا! أخبريني بقية القصة.
- عندما كنتُ أقرأُه شدني جداً، وتمنيت لو أنني أعرف صاحب الكتاب، بحثتُ عنه من خلال الاسم الذي كان على الغلاف، وأثناء البحث وجدتُ صفحةً بذات الاسم يُحتمل أن تكون له، ولكنّ الغريب فيها أنّ صاحبها يمنيّ!

- غريب! إذا كان كلامك صحيحاً فكيف وصل كتابه إلى هنا؟ كان الأمر منطقياً أكثر إنْ كنتِ اشتريتيه منْ معرض الكتاب.
- هذا الذي حيّرني ولم أجد له إجابة، ثم إنني بحثتُ عن الكتاب في المكتبات الإلكترونية فلم أجده!
- إذا كانَ الكتابُ بجوارك أخبريني، ما اسم دار النشر التي أَصدَرَت الكتاب؟
- بوك تايم للنشر والتوزيع.
- انتظريني دقيقة... دار النشر هــذه يمنية فعــلاً يا غيداء.
- ما العمل يا صديقتي؟
- لا تجزعي، لنلتقي غداً وسأخبركِ ماذا نصنع!
- حسناً..

في الصباح، اتصلتْ غيداء بـ هدى؛ اتفقتا على الالتقاء بعد ساعة في مقهى 'كافيتشو' في شارع الناصر محمد للحديث عن الموضوع. بعد السلام والاطمئنان، وطلب القهوة، تسألُ غيداء:

- ماذا سنفعل الآن، هل لديكِ فكرة؟
- أخبرتني أنكِ بحثتِ عن اسم الكتاب في معظم المكتبات فلم تجديه؟
- نعم.
- هذا يعني أنه لا يوجد إلا في تلك المكتبة.
- وبأيّ شيءٍ يُفيدنا هذا؟

- الأمرُ بسيط، سنذهب إلى المكتبة ونسأل.
- هيا بنا.
- لنْ يطير الرجل! انتظري، سنذهب، لنكمل قهوتنا على الأقل!

خجلتْ غيداء، وانتظرت!

في تلكَ الأثناء كانَ الكاتبُ في المكتبة، يغوصُ في بحور الكتب، أخذ ما استطاع من الدّرر، ثم وقفَ أمام الرفّ وسرّهُ كثيراً أنّ عددَ النّسخ من كتابه قد نقصت واحدة، ثمّ حيا البائع وغادر! وصلتْ غيداء وهدى إلى المكتبة، توجهتا للحديثِ مع البائع.

- السلام عليكم. (قالت هدى)
- وعليكم السلام ورحمة اللّه وبركاته، تفضلا كيف يمكنني مساعدتكما؟ (ردّ البائع)
- في الحقيقة لقد اشترينا كتاباً من مكتبتكم وراقَ لنا جداً، ونحنُ نبحثُ عن كتبٍ أخرى لنفس المؤلف إنْ كان يوجد. (قالت هدى وهي تنظر إلى غيداء)
- هل يمكنني أن أعرف ما اسم المؤلف؟ (سأل البائع)
- سلطان القحطاني. (قالت غيداء)
- للأسف لا يوجد، هذا هو الكتاب الوحيد لهذا الكاتب. (قال البائع)
- دار النشر التي أصْدرَت الكتاب يمنية، وأعتقد أنْ الكاتب أيضاً يمني، أليس كذلك؟ (سألت هدى)

- نعم هو كذلك. (رد البائع)
- كيف وصل إليكم الكتاب؟ (سألت غيداء)
- لقد وصلَنا بواسطة الكاتب نفسه! (قال البائع)
- كيف؟ هل لك أنْ توضح أكثر! (سألت هدى)
- الكاتب سلطان القحطاني هو الذي أحضر هذه النّسخ إلينا لبيعها، بعد أنْ دلّه أحد أصدقائه المصريين على مكتبتنا. (قال البائع)
- وهل يأتي إلى هنا؟ نريد رؤيته. من أجل توقيع الكتاب طبعاً! (قالت غيداء وهي تنظر إلى هدى)
- لو كنتما هنا قبلَ نصف ساعة لوجدتماه، إنه يأتي يومياً إلى هنا من أجل أنْ يقرأ، ثم يلقي نظرة على كتابه ويغادر! (قال البائع)
- حسناً، شكراً جزيلاً لك. (قالت غيداء)
- على الرّحب والسعة. (قال البائع)

سحبتْ غيداء هدى في طريقها، ومضتْ صامتة، وفي داخلها تأنيبٌ لصديقتها لأنها كانت السبب في ضياع فرصة اليوم، حيث تأخّرَت في شرب القهوة!

عرفتْ هدى سبب صمت غيداء فباشرت بالقول:

- غيداء أعلم أنكِ الآن تفكرين في كوني السبب في التأخير، لكنني حقاً لم أكنْ أعلم أنه سيكون هنا.

- لا يهم الآن، المهم أننا وجدنا أثره، سنفترق الآن لنلتقي غداً ونذهب في الوقت المناسب، لنْ نُضيّع المزيد من الفرص.

كادَ الفضول أنْ يُحرق غيداء، لم تعدْ تستطيع الصبر، ولا تطيق هذا الضباب الذي يحيط بهذا الرجل، ويكاد الأمر يُصبحُ تحدّيا وحرباً باردة بينها وبين الوقت الذي تبحثُ فيه عنه، لكنها تمالكتْ نفسها عندما وصلتْ إلى البيت. جلستْ غيداء وهي تفكّر فيما آلت إليه الأمور، كيف حدث هذا، ولماذا؟ هناك عقلٌ يقول لها: "اتركي الأمر"، وقلبٌ يحثها: "أكملي المغامرة مهما كانت نتائجها!" سرَحتْ غيداء في التفكير: "كيف هو شكل السلطان هذا؟ هل هو جميلٌ كـ نصوصه؟ هل لديه الإحساس ذاته الموجود في حروفه؟!" وتستمر تساؤلات غيداء، ثم تنقطعُ فجأة لتتحول إلى شيءٍ من 'الخوف من المجهول'، فتنهار كل الأحلام التي بَنتْها!

في الصباح انطلقت الصديقتان باكراً، لا يوجد مكان للتأخر هذه المرة، لا للتفويت، لا للتراجع، لا لاستمرار الضباب، يجب أنْ يُحسمَ الأمر!

دخل سلطان المكتبة برفقة زوجته وصغيره ذو الأعوام الثلاثة. ذهب الكاتب باتجاه المكان الذي ينام فيه طفله الآخر، وذهبت زوجته مع ابنهما إلى قسم قصص الأطفال! أخذ سلطانُ الكتاب، قلّبَ أوراقه، وفجأة سمعَ صوتاً يأتي من الخلف: "حُبي لكِ كـ شجرة الخيزران في شدّة تجذّره وسُرعة نُموّه!" ثمّ صوتٌ آخر: "لمْ أحبّ في حياتي غيركِ سوى امرأة واحدة، تلكَ المجهولة التي استعرتُ اسمها للنيابةِ عنكِ في

قصصي الخيالية!" التفتَ سلطان إلى ناحية الأصوات وابتسم، فقد كانت هذه النصوص مقتبسةً من كتابه! تقدمت الصديقتان حتى وصلتا إليه:

- الأستاذ سلطان القحطاني! (قالت هدى)
- نعم ، أهلاً وسهلاً!
- أنا هدى وهذه صديقتي غيداء.
- أهلا بكما.
- لقد اشترينا كتابك، وراق لنا الإحساس الذي تكتب به، واللغة التي تدخل بها إلى قلب القارئ، نحنُ من أشدّ معجبيك! (قالت غيداء)
- كانَ هذا أول عمل لي، يسعدني أنْ أجدَ معجبين بي هنا في مصر بعد النجاح 'المقبول' الذي حقّقتُه في وطني الحبيب. (ردّ سلطان)

تحدثتْ هدى وغيداء مع الأستاذ سلطان حول القراءة والكتب والهجرة والكثير من الأشياء قبلَ الدخول في الموضوع الرئيسي! هدى وغيداء تتبادلان النظرات، كل واحدة تريد من الأخرى أن تبدأ الحديث. فهمَ سلطان أنهما تريدان قول شيء:

- يبدو أنّ هناك شيئا ما تُريدَان قوله، نحن نتحدث منذ وقت طويل، تَحدّثا، لا داعي للارتباك.
- أولاً أنا أعتذر عما سأقوله، لكن يجبُ أنْ تعرف ذلك! في الحقيقة عندما وجدنا كتابك الجميل كان معنا أيضاً

صديقتينا أسيل ومريم، وعندما قرأتا السطر الذي يتوسط صفحة الإهداء قامتا باللعب على عقل هذه الفتاة المسكينة بقولهما أنكَ تقصدها بطريقة غير مباشرة، وعلّقاها بك، فاشترت الكتاب، وهي تبحث عنكَ من حينها! (قالت هدى)

- سطر الإهداء!؟ (قال سلطان)

فتحَ الكتـــاب، وقرأ: "الإهـداء: إلى عينيها الفاتِنتَيْنْ، وإلى حرف 'الغين' في اسمها الجميل" كررها سلطان وهو يبتسم، وفي تلكَ الأثناء وصلتْ زوجته إلى حيث الجميع:

- سلطان! (قالت)
- أهلاً حبيبتي، تعالي أعرفك: هذه هدى، وهذه غيداء، من محبيّ القراءة. (ثم توجّه بكلامه إلى الصديقتين): وهذه 'غادة' زوجتي الغالية! (ثم أردفَ قائلاً): لقد كان هذا العمل أول عمل لي، وقد أهديته لزوجتي الغالية، التي كان لها دورٌ كبير في تشجيعي وتزويدي بالحب اللازم للرحلة! هذه الجميلة التي كنتُ أقصدها. صاحبة حرف الغين وصاحبة الاسم الجميل. إنها مالكةُ القلب، وهي الإنسانة الوحيدة التي أحببتها، وبها اكتفيت. اعذريني يا غيداء وأنتِ أيضاً يا هدى، لم أقصدْ بتاتاً إيذاءَكما بحروفي، وأتمنى في المستقبل ألّا تخلو مكْتبتَيكُما من إصداراتي!

وقّعَ سلطان على نسخة غيداء، وأهدى نسخة أخرى موقعة لهدى، ثم غادر برفقة أهله!

- هل رأيتِ يا هدى كم هي غادة محظوظة؟ من النادر أن تجدي رجلا وفيا في هذا الزمن!
- صحيح. ولكنْ ألستِ حزينة؟
- لا يا صديقتي. لقد وضعتُ كافة الاحتمالات في الحسبان، وكنتُ أرجّحُ أنّ الأستاذ سلطان متزوجٌ لكنني خضتُ هذه المغامرة لمعرفة شيءٍ في نفسي وأنا سعيدة بذلك!
- وما هو هذا الشيء؟
- يا صديقتي كان باستطاعة الرجل أنْ يُلفّقَ أي قصة ويقول أنه كان يقصدني، وكان بإمكانه أنْ يعطينا رقم هاتفه، أو بريده الإلكتروني، لنتواصل معه فيما بعد، أو أنْ يطلب منا الحضور في يوم آخر ويأتي وحده، ولكنه كما قال: "أحبّ واكتفى"، وهذه هي قاعدة الحبّ الأولى، الوفاء والاكتفاء، وطالما يوجد أوفياء، إذن الحياة ما زالت بخير.
- نعم. صدقتِ. إنه يمنيٌّ أصيل!

مُهاجر على ظهرِ الموْت

بعد الفقد الذي تجرّعه، والألم الكبير الذي أماتَ قلبه الصغير، وبعد الحزنِ المميت الذي زارهُ إثرَ غارةٍ جويةٍ على بيتهمُ القابع في أطراف المدينة. إياد ذو الاثني عشر خريفاً وحرب، بقي مشرداً بلا أحد. قرّر الهروبَ منْ هذا الواقع الأليم، محاولاً النجاة منْ الرعبِ الذي أفقده طفولته، والمكان الذي أصبحتْ رائحة الدماء فيهِ الشيء الوحيد الذي يميّزه، لكنه لم يكنْ يعلمُ أين يذهب. اصطاده تُجّار البشر، أروهُ بعض الفيديوهات الصور، شاهدَ إياد الأطفال وهم يلعبون ويمرحون، شاهدهم يعيشون الحياة التي يتمناها، فحنّ قلبه إلى تلك الديار، أخبروهُ ألاّ سبيل إلى ذلك سوى ركوب الموج والمغامرة، وأنّ الأمر يساوي البقاء في خطورته واحتمال الموت، وأنّ الأمر يحتاج إلى بعض المال أيضاً! قال إياد في نفسه ساخراً: "الموت هو الموت، لكنّ الموت مع بقاءكَ جثةً واحدة خيرٌ منْ تطايرك أشلاءً إثر قذيفة" أخبرهم أنه لا يملكُ سوى عقدٍ صغير هو آخر ذكرى له من أمه، سيأتيهم به مقابل الخروج من هذا العذاب. جاء اليوم المنتظَر، ألقى إياد نظرةً أخيرة على بلدته، وشعر بالحزن لفراقها فسقطتْ دموعه. ليس بالسهل أنْ تغادرَ بلدك، لابدّ للأمر من ضريبة، وكان إياد لا يملكُ شيئا سوى دموعه، فذرفها! ودّع إياد ما تبقى له منْ ذكريات وأخذ صندوقه الصغير، واتّجه نحو المجهول، وكله أمل.

في وسطِ البحر، على متنِ قاربٍ صغيرٍ يَعِجّ بالهاربين، جلسَ إياد شارداً متشبثاً بصندوقه، تراه كأنه جزءٌ منهُ من شدة التصاقه به، استغرب الناس منه، وبدأَوا يتهامسون ويتساءلون: "يا تُرى ماذا يحمل هذا الفتى؟" صوت أحدهم قطع حديثهم: "الحمولة زائدة يجب أنْ تتخلصوا مما في أيديكم" نظر كلّ منهم إلى صاحبه، ترددوا، صاح صوتٌ آخر: "ليرمي الجميع ما في يده، ألا تسمعون، هل تريدون الغرق؟" ارتعد الجميع، وتشبثوا أكثر بآخر ما يملكون، وإياد يجلس هناك متشبثاً بصندوقه، يسدّ أذنيهِ ويغلقُ عينيهِ كلما صاح أحدهم. وبصوتٍ أكبر هذه المرة: "منْ لم يرمِ بأشيائه سأرميه معها" خاف الجميع ورموا أشياءهم، ماعدا إياد، ظل متمسكاً بصندوقه، وقلبه يخفق. صاحَ به الرجل: "ألمْ تسمع ما قلت أيها الفتى؟"

رفضَ إياد رمي الصندوق وبدأت دموعه تترقرق، فازدادت حيرة الناس وخوفهم عليه، وما زال السؤال المحير: "ماذا يوجد في داخل الصندوق حتى يرفضَ رميه؟"

غضبَ الرجلُ غضباً شديداً، وذهبَ لينفذ ما وعدْ، ورفع الصغير ناوياً رميهُ في البحر. ما إنْ همّ الرجل برمي إياد حتى وقف في وجههِ شريكه، أخذه جانباً وهمس: "ماذا تفعل، هل جننت؟ إننا بحاجة إليه! خذ الصندوق وارمه حيثُ شئتَ ولكن دع الفتى" أخذَ الرجل الصندوق عنوةً ورماه في البحر، بكى إياد بكاءً شديداً وهو ينظر إلى صندوقه يطفو فوق المياه. قال إياد في نفسه وهو ينظر إلى الصندوق: "أيّ حياة، مهما كانت جميلة، لا أريدها بدونك" وعلى

حينِ غفلة، قفز في الماء! أرعدَ الرُبّان وأبرق، وشتمَ حظه، فقدْ خسرَ سلعةً ثمينة كان ينوي بيعها، ولم يفعلْ شيئاً حيال غرق الصغير. استغرب الجميع مما فعله إياد! وما زال السؤال يعصفُ بهم: "ما الذي دفع ذلك الطفل إلى القفز في وسط البحر، ما الذي في الداخل؟!"

عنايةُ اللّٰه كانت حاضرة، في صباح اليوم التالي، خفر السواحل وجدتْ إياد مغمىً عليه بجانب صندوقه. أخذوه واعتنوا به صحياً، وما إنْ أفاق، حتى بدأ يصيح ويسأل: "أين صندوقي، أين صندوقي!؟" استغربَ الجميع وتساءلوا: "ماذا يوجد في ذلك الصندوق حتى يكون أول شيءٍ يسأل عنه؟" تم إحضاره، أخذه إياد بشوق، راح يفتحه بسرعة وهو يبكي، ليحتضنَ لعبة أخته الصغيرة 'نور'، وصورة عائلته التي بقيَت تحت الأنقاض، ومُجسّم لخارطة سوريا ملونةً بألوانِ العلم. هذا ما تبقى... إياد حمل بقايا عائلته ووطنه بصندوقٍ ورحل.

سِرّ السعادة

كلّ إنسانٍ على وجه هذه البسيطة يحلمُ بالسعادة، ولكن ما هي السعادة؟ وما هو سرّها؟ وكيف نحصلُ عليها؟ تساؤلاتٍ عديدة قد لا نحصل على إجابات شافية كافية لها، كما هو الحال عند بطل هذه القصة.

أمجد شابّ في مقتبلِ العمر، فقد والديه عندما كان صغيراً، اعتنى به جدّه 'سنان' وحاول تربيته تربيةً صالحة قدر الاستطاعة، ووهبه رغم فقره كل ما يملك. كبُر أمجد وكَبُرَتْ أحلامه، وكثُرت مطالبه التي قلّما يستطيع جدّه المسكين تلبيتها، كان ينظر إلى الآخرين ويتساءل: "لماذا لستُ كهؤلاء، لماذا حظي تعيسٌ هكذا؟". كانَ يجهل أسباب السعادة، لذلك لم يكنْ يشعرُ بها أبداً في حياته. لم يتوقف جدّه عن نصحه يوما، محاولاً إزالة الغشاوة التي صنعتها الحياة حول عينيه، ولكنه لم يستطع فتحَ بصيرته. شعر أمجد بالرغبة في بناء عائلة، لكنه كان مُعدما، وهناك آلاف العوائق التي تقف أمامه. هنالك ملكهُ الحزن، تسلّل اليأس إلى قلبه، وصارت حياته جحيما. صحى أمجد ذات صباحٍ ليجدَ جدّه ينازع. جدّه آخر الباقين له، آخر الآمال، وآخر الأحباب، سيتركه وحيدا دون أحد. احتضن أمجد جدّه بقوة، كأنه لا يريده أنْ يرحل. ولكن، هل ينظر الموت إلى دموع الباكين، أم أنّ لكل أجلٍ حساب؟

- لا تتركني وحيداً وترحل يا جدي. (صاح أمجد وهو يبكي)
- اسمعني يا أمجد، لم يتبقى لي إلا القليل لذلك اسمعني جيداً، إذا أردتَ أنْ تحيا سعيداً فعليك أنْ تجدَ سرّ السعادة.
- وما هو هذا السرّ يا جدي؟
- هناك عجوزٌ يدعى 'الغيث' بعدَ أنْ تواري جثماني انطلق للبحث عنه وستجد السرّ عنده.
- وأينَ هو هذا الرجل يا جدي؟ جدي؟ جدي؟ (وغرقَ أمجد في البكاء)

بعد أيام من وفاة جده، سأل أمجد عن الرجل، فعرف أنه يسكنُ كهفاً في إحدى قمم الجبال، أخذ أمجد متاعه، وشدّ رحاله، وانطلق يبحثُ عن الرجل الذي سيجعله سعيدا. في طريقه للبحث، مرّ بجوار إحدى القرى، فوجدَ رجلاً متكئا على شجرة، وجهه مكفهرّ، كأنما حمل الدنيا فوق رأسه، جلس إليه أمجد، ليتبادلا الهموم:

- لماذا أنت جالسٌ هنا هكذا؟
- لأنّ الحياة مُوحشة أيها الغريب. الحياة ليست لنا.

من خلال الحديث اتضح أنّ الرجل متزوج لكنه لا يملك بيتاً خاصاً به، وليس لديه منَ المال ما يكفي لشرائه، وأنّه وزوجته في صياح دائم، وحنقٍ مستمر! واصل أمجد سيره، مرّ على أحد البيوت، أكرمَه أهل الدار فدعا لهم وسألَ عن صاحب البيت، فأخبروه أنه سيجده أثناء خروجه من المكان، وبعد وقتٍ قصير سمعَ رجلاً يصدح

بمواويل حزينة تملأ الآفاق فتوقع أنه هو، وصل إليه، شكره على ما قدمه أطفاله له، مدحَ بيته وحديقته الصغيرة، وإذا بالرجل يُشير إلى قصرٍ على تلةٍ بعيدة، ويقول: "هل بيتي بيتٌ أمام هذا؟ وهل حديقتي حديقة أمام الجنة التي فيه؟". بعدَ حوارٍ ينمّ عن الحزن وعدم الرضا، ترك أمجد الرجل، ليواصل سيره. قطع أمجد الكثير والكثير، لم يبق أمامه إلا المرور بالقصر، والنزول إلى الجهة الأخرى من الجبل، فهناك – كما قيل له – سيجد الكهف الذي ينزل فيه 'غيث'. وصلَ أمجد إلى القصر، استقبله الخدم، قاموا بضيافته، كان سعيداً بذلك، أراد شكر صاحب القصر قبل مغادرته، لكنه لم يره، أخبروه أنه مغلقٌ على نفسه الباب منذ مدة، لا يرى أحداً، وعندما سألَ عنِ السبب قيل له: "إنه علِم أنّ 'الملك الفلاني' قد قام ببناء قصرٍ أعظم من قصره، فحزِن وأقفل الباب على نفسه!". خرجَ أمجد وكله ذهول، قطع المسافة المتبقية وهو يفكر فيما رآه منذ البداية، لكنه لم يستطع الربط بين الأحداث، ثم وصل أخيرا إلى الكهف! تردّد في الدخول مرات كثيرة، شعرَ بالخوف منْ أنْ يصيبه شيء، ولكنّه صمّم أخيراً، فإن وجد السر عاش سعيداً، وإلا فما معنى الحياة بدون سعادة؟ دخلَ أمجدْ إلى الكهف، فوجدَ عجوزاً وجهه يشعّ نوراً، ولحيته تقطر ماءً، اقترب منه أمجد وسلّم عليه، سأله عن اسمه ثم حكى له قصته، فرحبَ به العجوز وقرّبه منه. سأل أمجد 'غيث' عن السرّ الذي سيجعله سعيداً، والذي أخبرَه جده قبل أن يفارق الحياة أنه سيجده عنده.

- حدثني أولاً عنْ أغرب ما رأيت في طريقك إليّ.

حدثه أمجد عن كل الذين مر بهم حتى انتهى إليه. وعن الكلام الذي سمعه منهم، فقال غيث:

- أخبرني يا أمجد. لو علم صاحب القصر أنّ صاحب البيت يحلم بقصرٍ كقصره، هل كان بكى؟
- لا. لن يبكي!
- لو علم صاحب البيت الصغير أنّ بيته حلم الكثيرين، هل كان تضَجّر؟
- لا. لن يفعل!
- لو علم الذي لا يملك بيتاً خاصًا أنّ حلم البعض – كـ أنت – أنْ يأسسوا عائلة حتى لو عاشوا في كوخ، هل سيتذمر؟
- لا لنْ يتذمر!
- ولو علمتَ أنت أن حياتك هذه التي لا ترغب بها هي حلم الكثيرين ممن سُلبوا الحرية، هل ستتضجر؟
- لا. (قال أمجد بعد أنْ أطرقَ قليلاً وخفض رأسه)
- أمجد. بني. إنّ الجميع يرى السعادة فيما ينقصه، وإنّ التفكير بهذه الطريقة أكبرُ خطأٍ يرتكبه الإنسان بحق نفسه، إنّ السعادة الحقيقة يا بني فيما يملك الإنسان وليس فيما يفقد، وأحرى للإنسان إذا أراد أن يشكر اللّه، وأنْ تطمئنّ نفسه، أن ينظر إلى من هم دونه، لا إلى من هم أعلى منه. واعلم يا بُني أنّ اللّه قسّم الرزق بين عباده بالعدل، وأنّ الرزق ليس مالاً فقط، فالرزق له أوجهٌ عدة: "الصحة رزق، العلم رزق، النسيان رزق، الزوجة الصالحة رزق، والأولاد

البَررةُ رزق". إنّ من الخطأ أنْ ننظر إلى الرزق على أنه مال فقط. يا بني لولا حكمة اللّه لفسدت الأرض، فالبعض يُصلحه الفقر، والبعض يصلحه الغنى، واللّهُ أعلم بعباده. هل علمت الآن يا ولدي سرّ السعادة؟

- نعم يا سيدي. الآن فهمت.
- أرجو أنْ تسير على النهج الصحيح يا أمجد، النهج الذي ارتضاه لك جدك، وكتبه قبل ذلك ربك.
- إن شاء اللّه يا سيدي.

عاد أمجد إلى بلدته وكله قناعة ورضى، توجّه إلى قبر جده، قرأ الفاتحة ثم أردف: "اعذرني يا جدي فقد حملتك فوق طاقتك، وغضبت منك، وقلتُ أقوالاً لا تليق بمؤمن. سامحني يا جدي، وأستغفر اللّه عما قلته في لحظات يأسي".

أُحبّها ولكنْ..!

في صباحٍ باردٍ كعادةِ الصباحات في شتاءات كندا، عند بوابة جامعة 'كولومبيا البريطانية' في فانكوفر، تقابلا لأول مرة. كان مظهرها يُوحي بأنها فتاة مثقفة، طموحة، وواثقة من نفسها. تكرّرَ لقائهما مرةً وأخرى، لكنّ السلام والابتسامة كانا حديثهما الوحيد. كانَ في كلّ مرةٍ يراها يشعرُ بأنه يعرفها منذ زمن، وكان كلما ابتسمَت في وجهه يشعر بأنه يحلق عالياً كطائرٍ جميل، لكنه لم يستطع البوح والاعتراف بمشاعره، فقدْ كانَ يملك شخصيةً خجولةً جداً. لم يكن 'ضياء' يعرفُ شيئاً عن الفتاة: "اسمها، جنسيتها، تخصصها، والأهم منْ ذلك، أنه لا يعلم شيئاً عن قلبها ومشاعرها". عاد في إحدى الليالي إلى المنزل للدراسة، فتحَ حاسوبه، فكّر بها، أخطأ ومسح بعض ملفات النظام، وتوقف الحاسوب عن العمل! حاولَ ضياء إعادة تشغيل الجهاز ولكن دون فائدة، وكعادته في مثلِ هذه المواقف يلجأ إلى صديقه الوحيد 'حَليْم':

- السلام عليكم. كيفَ حالكَ يا حليم؟
- وعليكم السلام. بخير يا صديقي. ماذا عنك؟
- أنا بخير والحمد لله، ولكنني أحتاج مساعدتك!
- أخبرني ماذا حدث؟

- لقد تعطّل حاسوبي. هلْ تعرف مكاناً أو أحداً يمكنه إصلاحه؟
- ماذا حدث بالضبط؟
- مسحتُ سهواً بعض الملفات فتوقف عن العمل!
- أووه. يبدو أنكَ حذفتَ ملفات النظام! ليستْ مشكلة، أظنّ أنني أعرف منْ يُمكنه مساعدتك.
- منْ هو؟ أخْبرني لأذهبَ إليه فوراً!
- على رسلكَ يا صديقي! منْ سيستقبلكَ في هذا الوقت؟ غداً سأعرفكَ على إحدى مواطناتي، سنعرض عليها المشكلة وستقوم بحلها! فهي متخصصة في هذا المجال.
- أشكركَ يا حليم.. أنتَ صديقي الوحيد.
- وأنتَ صديقي الجميل. أراك غداً.

حليم... ثلاثينيّ، طويل، أسمر، التقى بضياء لأول مرة في أحدِ المقاهي، كانَ ضياء يقبعُ في إحدى الزوايا وحيداً حزيناً، دخلَ حليم وجلس بجانبه بعدَ أنْ تفرّسَ في ملامحه وعرف أنه عربيّ، فسلّم عليه:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- منْ أيّ البلاد أخا العربْ؟
- من التي كانت تسمى 'السعيدة'. (قال ضياء وقد أطلق تنهيدة)
- يبدو أنكَ تشتاق إليها.

- لم يعدْ لي فيها ما أشتاق إليه، الحربُ أخذتْ مني كل شيء، مدينتي، أخي وأصدقائي، حتى ذكرياتي. (قال ضياء بحرقة)
- مع ذلك يظهرُ عليكَ الشوقُ إليها.
- الوطن مثلَ الأم، أحياناً نغضب منها، لكنّنا عند أولِ كبوة دائماً نهرع إلى حضنها.
- صدقت. صدقت. بالمناسبة أنا حليم منْ بغداد.
- وأنا ضياء... تشرفتُ بمعرفتك.

أصبحَ حليم صديق ضياء الوحيد في بلاد الغربة، عوّضه عن أخيه الذي فقده وعنْ أصدقائه، ملأ فراغ حياته ومنحه الكثير منَ الحنان. كانَ ضياء يُحبه جداً، لدرجة أنه يُحبه أكثرَ منْ نفسه، رغم أنه يختلف عنه كثيراً!

لم يستطعْ ضياء النوم ليلتها، خيالُ الفتاة لا يفارقه، وابتسامتها الساحرة تُشعل النار في قلبه. حدثّ نفسه بالاعتراف بهذا الحب الذي يعتلجُ في صدره، لكنه لم يكن يعلم ماذا يفعل! التقى الصديقانِ في مكانٍ اتفقا عليه مسبقاً، وتبادلا أطراف الحديث:

- هل أنت واثق منْ أنّ صديقتك ستقوم بإصلاح الجهاز؟
- واثقٌ من ذلك يا عزيزي كـ وثوقي بوجودك أمامي، إنها فتاة ذكية جداً، وجميلة أيضاً في ذات الوقت!
- ما بك يا حليم ماذا لو أتت الآن وسمعَتْ كلامك؟! (قال ضياء وهو يتلفّتْ)

- ماذا سيحدث إذا سمعت؟ أنا أقول الحقيقة!
- ستضع نفسك في موقف محرج!
- ضياء. دع عنك هذا الطبع. إذا بقيتَ هكذا لنْ تحبك فتاة في حياتك!
- ولماذا؟
- لأنّ النساء دائما يُحببنَ من يدلّلهنّ، منْ يقول عنهنّ أنّهنّ جميلات، من يجاملهنّ، منْ يصنع لهنّ من كلامه أجنحة، لكنك لا تفعل شيئاً من ذلك، صدقني أحياناً أعتقد أنك بلا مشاعر يا رجل!
- حليم.. هذا طبعي وأنتَ تعلم ذلك.
- أعلم يا صديقي الجميل أعلم.. ها قد أتت 'وردة'.

ما إنْ وقع نظر ضياء عليها حتى تفاجأ. إنها الفتاة نفسها التي كان يراها في الجامعة. والتي بسبب تفكيره بها أخطأ ومسح ملفات النظام من الجهاز. إنها الفتاة التي يحبها والتي قضى ليلته في التفكير في الاعتراف بحبه لها. يا اللّه! إنّها وردةٌ كَ اسمها!

- مرحبا شباب. (قالت وردة)
- أهلا وردة... تفضلي.. (قال حليم)
- لم أتأخر... أليسَ كذلك!؟ (سألت وردة)
- بالعكس... في وقتك تماماً. شكراً لحضورك! (أجاب حليم)
- لا شكر على واجب يا حليم. (قالت وردة)

- ضياء... هذه صديقتي وردة التي أخبرتك عنها. وهذا صديقي ضياء. (قال حليم مُعرّفاً)
- أهلا... سعيد بمعرفتك. (سلّم ضياء بذهول)
- لقد تقابلنا بعضَ المرات منْ قبل، تسعدني معرفتك أيضاً. (قالت وردة)

شعر ضياء بسعادة غامرة عندما تعرّف عليها أكثر، ولكنّ تساؤلاتٍ عديدة وُلدتْ آنذاك في رأسه: "من أين يعرفها حليم؟ ومنذ متى وهم أصدقاء؟ لقد قال حليم بأنهم من نفس البلد، هل يعرفان بعضهما من هناك؟" وتضاربت الأفكار في رأسه. أصلحَتْ وردة الجهاز، عبّرَ ضياء عن امتنانه لها، واستمر الجميع في الحديث، تحدثوا عن المستجدات والأحداث في الجامعة والتخصصات وغيرها. كانتْ عيونُ وردة تُشعّ عندما يتحدث حليم، وخداها يتوردّان، الأمر الذي أقلق ضياء كثيراً. ذهب حليم ليحضر شراباً، بينما ظلّ ضياء ووردة يتحدثان، سألها عن حليم، عن علاقتهما، كانت الفتاة تجيبه وهي تنظر إلى حليم من بعيد نظرةً كلها دفئ وخجل، عندها أيقن ضياء أنها تحبه. ثمّ تذكر كلام حليم عن جمال وردة وعن الحب، فوقع في نفسه أنّه ليس ببعيد أن يكون حليم يحبها أيضاً. بحكم طبيعة ضياء 'الخجولة' و 'المضحّية'، ولأنّ أعزّ إنسانٍ على قلبه في طرف الأمر فقد كتم حبه في أحشائه، وفاءً وحباً. وفاءً لصديقه، وحباً في حبيبته. صديقه الذي أعاد إلى قلبه الحياة التي سلبتها الحرب، وحبيبته التي ملأت قلبه حباً قبل أنْ يعرف حتى اسمها، حبيبته التي وجدتْ سعادتها مع غيره.

مرت أيامٌ، وسنين سطّرَ فيها ضياء المعنى الحقيقي للتضحية، كان يساعدهما في اختيار الهدايا لبعض، يُصلح بينهما إذا تخاصما، يجمع بينهما إذا تفرّقا، ويحبّبهما لبعض أكثر. فعل ذلك بكل حبّ وبكل إخلاص، فعلَ ذلك بصفته 'الصديق الوفي' و 'الحبيب المتفاني' رغم توجّعه. لقد كانا أعزّ اثنين في حياته، فاختار سعادتهما على سعادته. أنهى الجميع دراستهم، عاد حليم مع وردة إلى وطنهم، بعد أنْ اتفقا – بدعمٍ من ضياء – على الزواج، وظلّ ضياء في فانكوفر وقلبه في بغداد. كان ضياء يحب الكتابة، يكتب بشكل دوري في أحد المنتديات التي يكتب أغلب كتّابها تحت أسماء مستعارة، والتي يديرها بعض الشباب العرب المبتعثين هناك.

"أُحبها ولكن.." كانَ هذا اسم ضياء المستعار الذي يكتب تحته، له، وبه! كان البعض يُفكر أنّ الاسم كأيّ اسم مستعارٍ آخر، لم يفكروا بأنّ وراء الاسم قصته، حبه، ووجع حياته. كان يخفي الأمر عندما يسأله أحد، يتعذر، يغير الموضوع، إلى أنْ جاء ذلك اليوم الذي كشفَ فيه سرّ هذا الاسم فكتبَ قائلاً:

- "لقد كثُرتْ الأسئلة المتعلقة حول اسمي المستعار، ورغم كلّ محاولاتي للنفاذ بريشي من التوضيح باختلاق الأسباب الوهمية، إلا أنّ الجميع لم يُصدق، وأظنّ بأنه قد حان الوقت لتوضيح السبب وراء اختياري لهذا الاسم. لقد أخفيت السبب كما أخفيت حبي لأعوام كثيرة، الحب الذي ملأ قلبي. الحب الذي عاش وسيعيش ما حييت. الحب الذي بدأ

عند رؤيتي لتلك الجميلة. الجميلة التي أثق بحبي لها، بقدر ما أثق بأنّ أقدارنا لنْ تتصل، وبأن طُرقنا لنْ تتقاطع، لأنّ سعادتها ارتبطت باسم رجلٍ آخر، فآثرتُ أنْ أتوجع طالما هي سعيدة. سيقول أحدكم الآن: "إذا لم تحارب منْ أجل شيء تحبه فلا تبكِ لفقدانه" ولكنْ... هل يُحارب الإنسان أعزّ بشرٍ على قلبه؟ وهل يسمى الإيثار فقد؟ لا أعتقد ذلك. والآن أخبركم سرّ ذلك الاسم المستعار 'الناقص' الذي اخترته عندما علمتُ بقصتهما كي يكون عنواناً لحبي ورمزاً لوفائي ووجعي. إنّ الاسم الكامل والسبب الكامل هو: "أُحبها ولكنها تحبّ صديقي"!

اسمهـا نرجس، وعمرهـا عشرون عاماً، أختٌ لثلاثة إخوة هي أصغرهم. مغلقةً الباب على نفسها، منزوية في أحدِ الأطراف، تجولُ ببصرها في الغرفة، متجاهلةً كلّ الأصوات التي تأتي من الخارج، تحتضُن وسادتها، كاتمة أسرارها وصديقتها الدائمة، تُحدّق في قطعة القماش البيضاء، في النافذة، في الدولاب، في الثريا المتدلّية، في الكرسي، في الصورة التي تجمعها بوالدها، والدها الذي أحبها كثيراً أو أنه ادعى ذلك! تضارب أفكار، مشاعر مبعثرة، شيءٌ حارقٌ يحاول اجتياح الحلق، ولؤلؤاتٍ تسقي الخدّ لتُظهر الحقيقة، وتمسح الوهم الذي رسمته 'الكوافيرة'! تعود بها الذاكرة إلى الزمن البعيد، حين كانت فتاة العائلة المدللة، حيث جاءت بعد ثلاثة من الأولاد الذكور. تتذكر وهي تمسح على الصورةِ والدها وهو يلاعبها، يميزها، يدافع عنها، ويجلسها بجانبه على مائدة الطعام. تتذكر تلبيته لطلباتها، استماعه لهمومها، وتقديره لآرائها وأفكارها، ووعوده الكثيرة في أنْ يعيش لأجل سعادتها! تبتسم، وتقبل الصورة. لكن سرعان ما تعود بها الذاكرة إلى الأمس القريب، الأمس الذي غير نظرتها لقدوتها، وحطم ثقتها فيه، وهزّ مكانته في قلبها! تعود بها الذاكرة إلى البداية. عندما تقدّم 'سعد' لخطبتهـا، ذلك الشابّ الطيب، المليء بالاحترام، الذي تَعرف عليها في الكلّية وأُعجبَ بها وأعجبت به، أحبها وأحبته، وجاء كما يقال

– من الباب – ولأنه يتيمٌ يُعيل أُمه وأخته الصغرى، وفقيرٌ لا يملكُ شيئاً لغده، ولأنّ عمله لا يكـاد يغطي مصاريف دراستـه، قابله والدها بالرفض! ومنْ بابِ الدفاع عن الحبّ والمطالبة بالحقّ الشرعيّ تحدثتْ نرجس مع والدها، لكنه أصرّ على موقفه، رامياً توسلاتها ودموعها عرض الحائط! بعد عدة أشهر يعود سعد من جديد ليُفاتح أباها في ذات الموضوع، ظناً منه أن والدها سيُغير رأيه ويلين، ولكن هيهات! حاول مرة بعد أخرى، لينتهي الأمر بالضربة القاضية للقلب. حينَ عرض على والد نرجس أحد أصحاب الأموال، مالاً طائلاً مقابل ابنته. وكما هي عادة هذا النوع من الآباء وافق على "بيع ابنته". لم يرحم دموعها ولا توسلاتها، لم يسمع لرجاءات والدتها، ولا استعطاف سعد، ولا تدخل أخاها الذي يؤمن بالحب! يا اللّه! هل نسي أنها فتاته المدللة؟ هكذا هو الطمع، يجعلُ الإنسان أكثر قسوة، أكثر حقارةً، وأكثر وحشية. وحبّ الدنيا يُهلك النفس ويضرّ بالأحباب! نرجس ليست أول الضحايا ولن تكون الأخيرة، مادام الحبّ ذنب، والمال هو المتحدث الرسمي في البلاد. نرجس لنْ ترمي بيدها إلى التهلكة لأنها تعرف عقوبة الشرع، ولن ترمي بنفسها إلى حلوق الناس لأنّ سمعتها تعني لها الكثير. نرجس سلمت أمرها وأمر والدها إلى من يملك السماوات والأرض، وصبرتْ.

استدراك:

- اليوم هو حفلُ زفاف زوجي. زوجي الذي لا يعلم أنه ينتظر جثة. اليوم سيتجدد رصيد أبي في البنك، وسينتهي في قلبي.

اليوم سألبس الكفن على هيئة فستان أبيض. اليوم ستبكيني صديقاتي بضحكات مصطنعة. اليوم سأموت، وسيعيش حبي!

نرجس...

قبل لبس الأبيض بدقائق!

صُدفة

أحياناً قد تجمعكَ الصدفة بشخصٍ عزيزٍ على قلبك، دون موعدٍ مسبق، دون تخطيطٍ أو اتفاق، فتكون الفرحة أعظم والدهشة أكبر، ونبضُ القلب أسرع! ما بالك لو حدث والتقيتَ بمجموعة من الأصدقاء في وقت واحدٍ ومكانٍ واحد، وبالصدفة أيضاً؟! إنه لأمرٌ شيّق، أليسَ كذلك؟ برأيي أنه سيكون أكثر إثارة من بعض حلقات مسلسل قيامة أرطغرل!

في يوم من الأيامِ قررتُ أنْ أتواجد في أكبر حدثٍ منتظر في الباسلة عدن "معرض الكتاب" الذي تقيمه 'دار بوك تايم للنشر والتوزيع' في مبنى المجلس التشريعي في كريتر. هذا المبنى الذي يقع على مرتفعٍ يُطلّ على أكثر الشوارع ازدحاماً في المدينة، يُعدّ من أهم المعالم فيها، وكان في الأصل كنيسة بُنيت عام 1871م، تسمى كنيسة "القديسة ماريا" وفي عام 1947م تحولَت الكنيسة إلى مقر للمجلس التشريعي الأول من نوعه في شبه الجزيرة العربية، وكان المجلس يتكون من ثمانية أعضاء يمثلون طوائف عدن، وكانت كل طائفة تنتخبُ ممثلها، واستمرّ المجلس في ممارسة مهامه حتى عام 1966م. كان أملي أنْ يحالفني الحظ، ويصادف تواجدي هناك تواجد الأستاذ "فهمي عبد المعز" الذي يُعتبر من سكّان محافظة عدن، والذي – على ما يبدو – أنه يزورُ المعارض دائماً، أو أنْ ألتقي بالأستاذ "توفيق العلوي" الذي لم تتجاوز معرفتي به حاجز 'الواتس آب'.

الأستاذ توفيق العلوي أو قائد الثورة الثقافية في اليمن – كما يُحبّ الأستاذ فهمي أن يسميه – صاحب متجر بوك تايم، ومما هو جدير بالذكر هنا أنّ الأستاذ توفيق قام – وبمساعدة بعض أصدقاءه – بتأسيس المتجر في أواخر عام 2015م بشكل متواضع، لكن حبّ العمل والطموح، وحبّ القراءة، جعلتْ منه دار النشر المحبّبة للكتّاب الكبار، والدّاعمة للمواهب، وغدا المتجر يتصدر قائمة المتاجر الإلكترونية لتوصيل الكتب الورقية على مستوى اليمن.

تعمدتُ أنْ أخرج باكراً، كي أتفادى الزحام، وصلتُ وإذا بالمكان يعجّ بالناس، الأمر الذي جعلني أتساءل: "هل عدن كلها هنا؟! هل عدن كلها تقرأ؟!" يا اللّه ما أروع هذا المنظر! إنه أشبه بيوم عيد، ولولا وجود الكتب في الوسط لأيقنت فعلاً أنّ اليوم عيد! ذاك يقرأ، ذاك يتصفح، هذه تبحث، هذه تلتقط صوراً، هناك مجموعة يتناقشون، مجموعة يتعارفون، وشخصٌ يمسكُ قلماً والزحام مكتظٌ حوله. على الجانب الآخر مجموعة من أطفال المدارس أتوا لزيارة المعرض في مشهدٍ رهيب، يفسّر أهمية القراءة في بناء وتوعية الأجيال. وبينما أنا كذلك، إذْ بيدٍ تشدّني من الخلف. فزعت. استدرتُ بسرعة، وإذا بي أرى شخصاً لم أكنْ أتوقع أنْ أراه في تلك اللحظة!

- أوو رأفت!
- بليغ!
- ماذا تفعل هنا؟

- ما تفعله أنت يا صديقي!

تعانقنا عناق المحبين، و تبادلنا أحاديث المشتاقين، ومضينا نجوب المعرض، نتنقّلُ بين حدائقه، ونقطف من كل حديقة زهرة! بينما نحن نتبادل الحديث، رأيتُ منْ بعيد الأستاذ "توفيق العلوي" كنتُ أعرفه من خلال بعض الصور التي كان ينشرها من معارض الكتب التي يقوم بها، لكنني لم أكنْ قد التقيته شخصياً وكذلك رأفت. ذهبنا إليه، سلّمنا عليه. رحبّ بنا ووصفَ لنا الأقسام وحدثنا عن أوقات المعرض، وعرض علينا خدماته. تحدثنا قليلاً، ثم استأذنَ واعتذر لانشغاله. شكرنا له طيب أخلاقه، وتواضعه المعروفَين عنه، وقبل انصرافه سمعنا أحدهم ينادي عليه من بعيد التفتُّ إلى مصدر الصوت، وقلت لهم: "صدّقوني لقد رأيت هذا الرجل من قبل، لكن أين يا ترى؟!" اقترب الشاب منا، كان يبتسمُ بشكلٍ خجول، كانَ بياضُ وجهه ساطعاً، كأنما نوراً يشعّ منه، يبدو أنه تفاجأ برؤيتنا هو الآخر، وصلَ إلينا، سلم علينا، ردينا عليه السلام:

- الشاعر فائز القحطاني! (قلت)
- البليغ! (قال)
- يا لسعادتي! صدقني لم أكن أتوقع حضورك... سرّتني رؤيتك كثيراً. (قلت)
- أنا أيضاً سعيدٌ بك وبالأخ رأفت، إنه لشرفٌ عظيم التعرف إلى أمثالكم. (قال فائز)

ثم تحدّث مع الأستاذ توفيق قليلاً، وأردفَ موجّهاً كلامه إلينا:

- دعونا نتجوّل، ونتعرف على بعض أكثر، برفقة الكتب!
- من بعدك أيها الشاعر! (قال رأفت)

قبل أنْ نذهب سألتُ الأستاذ توفيق عن إمكانية وجود الصديق 'فهمي' فقال:

- لقد تواصلتُ معه البارحة وأخبرني أنه سيأتي، ولكني لم أستطع الوصول إليه اليوم.
- طبيعي. فهو يستخدم شريحة "واي" التي تغطيتُها تملأ المكان! (قلت مازحاً)
- هيا بنا إذاً لنبحث عنه. (قال رأفت)

وَدّعنا الأستاذ توفيق وانطلقنا. بعد تمشيطنا لنصفِ المساحة يُوقفنا رأفت:

- لحظة! لحظة!
- ماذا حدث؟ (قلت)
- انظروا هناك. (قال رأفت)
- أين؟ (سأل فائز)
- هناك. أليس ذاك هو الشاعر عبد الرحمن الحداد؟ (أشار رأفت بيده وهو يسأل)
- أيهم تقصد؟ (قال فائز)
- ذاك الجالسُ على الكرسي! (أجاب رأفت)
- نعم إنه هو. ماذا يفعل هنا !؟ (قلت)

- لا أعلم. من الظاهر أنّه ونحنُ نبحث عن التاريخ يأبى الشّعر إلا أنْ يكون حاضراً وبقوة في الأرجاء! (قال رأفت)

أخذنا نخطو باتجاهه ببطءٍ وحذرٍ شديدَين، كي نفاجئه، ولكنا فوجئنا برأفت يوقفنا ثانية:

- اختبئوا. اختبئوا!
- ماذا هناك ثانيةً يا رأفت!؟ (قلتُ)
- انظروا إلى القادم منْ ذاك الاتجاه! (قال رأفت)
- لا يعقل. إنّه الأستاذ فهمي! (قال فائز)
- نعم. نعم. إنه يذهب باتجاه الشاعر عبد الرحمن، من الواضح أنهما التقيا قبلنا. (قلت)

أكملنا سيرنا باتجاههما حتى إذا وصلنا سلّمنا، فَرَدّا التحية بأحسنِ منها:

- أووو ما هذه المفاجأة! (قال فهمي)
- إنه القدر! (ردّ فائز)

تعانقنا جميعاً، تبادلنا كلمات الترحيب، أطفأنا حرارة الأشواق، وتحدثنا أحاديث المحبّة، رغم ذلك لم نستطع التعبير عن الفرحة التي عشناها قبل لحظات بالشكل اللائق! جلسنا وضحكنا، تحدثنا عن القراءة والكتابة، عن واحة الثقافة – المجموعة الجميلة التي جمعتنا قبل هذا المكانْ – عن سبب زيارتنا لمعرض الكتاب، عن جديدنا في مجال الكتابة، وعن جديد الشارع اليمني. وأثناء ذلك

قمتُ بتوجيه سؤالٍ للجميع: "ماذا تعني لكم القراءة؟".. "لنبدأ من اليمين. تفضّل أيها الرأفت"..

قال الأديب رأفت: "القراءة هي طعام العقل، فالعقل بحاجة للقراءة كحاجة الجسد للغذاء والماء".

- ماذا عنك أستاذ فهمي؟
- القراءة هي معشوقتي التي لا تعارض لي رأياً أبداً، وأنا عاشقها الذي لا يخون!
- دورك أستاذ عبد الرحمن..
- القراءة عالم جميل، أنْ تقرأ يعني أنْ تعايش كل الأزمنة، وتزور كل الأمكنة، وتلتقي العظماء من كل عصر.
- وأنت أستاذ فائز.. ماذا تعني لك؟
- القراءة يا صديقي هي الشيء الوحيد الذي يفتحُ أمامي آفاقا واسعة، ويسمح لي أنْ أعيش أكثر من حياة!
- وأنت ماذا تعني لك؟ (قال فهمي موجهاً السؤال إليّ)
- أما أنا فـ "القراءة هي متنفسي الوحيد الذي أهرب إليه من ضيق الواقع، القراءة رحلة على متن الورق، برفقة الكتّاب والمفكرين والمبدعين".

في تلك الأثناء لمحتُ فتاةً جميلةً تجلس في إحدى الزوايا، منهمكة في القراءة، كأنما تريد أنْ تلتهم الكتاب! أردتُ أنْ أُضيف على الجلسة شيء من اللطافة والجمال والأناقة، فقلت للشاعر عبد الرحمن الحداد: ماذا تقول في هذه؟ فأنشدَ يقول:

هي الضياءُ ضيـاءُ الكونِ جَمّلها
ربّ السمـاءِ بحليـــــــــةٍ ووقارِ
كـم تعشقُ الأوراقَ أفنتْ عُمرها
بينَ الرحيـــلِ لمسلـــمٍ وبخـــاري
وإذا قَـــرَتْ يومـاً لأدهـــم قصـــةً
بتفاعـلٍ قالـــت... هنا أزهـــــاري
كم هدّها الإرهاقُ لكـن عزمُها
لا يُشترى بجَواهـــرٍ وسُـــــــوارِ
كم أشعلتْ شمعـاً بليلٍ مظلـــمٍ
لتضيءَ ليلَ تَـذَاكُـــرٍ وحـــــوارِ
صارتْ معلمتـي بِرَغـمِ تَعَلُمِـــي
من كثرِ ما قـرأَت من الأشعـارِ

ثم وجهتُ السؤال للأديب 'رأفت' فقال: "وهل بعد هذا الإبداع من كلام!؟ ولكني أرى أنها ليسَت قارئة عادية، إني أشتمّ فيها رائحة الأدب. انظر لها. إني أرى فيها شِعر الخنساء وأدب مي زيادة وخيال أجاثا كريستي وجمال المرأة العربية القديمة، والحقيقة أنني لا أجد كلاماً مناسباً يمكن أنْ أصفها به!" ثم أتى الدور على أستاذ التاريخ الذي قال: "إني أرى فيها سحر دمشق، وجمال بغداد، وتاريخ اسطنبول وحاضرها، انظر لتلك العيون يا صديقي إنها تاريخٌ بحد ذاته، لعمري لهي أحقّ من تاج محل، ومن حدائق بابل بالدخول ضمن قائمة عجائب الدنيا السبع!"

ثم أعطيتُ زمام الحديث للقحطاني، فأطرق قليلاً ثم أنشد:

قِـفْ في مكـانـك أيُّهـا "الطَيَّارا"
وانظـــرْ لتلك تُقـلِّــبُ الأنْظَـــارَا
ذاك الكتـابُ على يدَيْهَا كــأَنَّهُ
لحـــنٌ جميـــلُ النَّـــغـمِ والأوتـــارَا
قرأَ الكتابُ على شفـاهِهَا أحرفٌ
ما صَاغَهــا الأعشَــى ولا بشـــارا
وتراقصـــتْ طَرَباً لفـــرطِ جمالِها
كلُّ الحروفِ وأرسلـــــتْ 'إِشْعَارا'
مضمونـــهُ قِفْ يا بليغُ مُشاهـــــداً
فهُنـا البـــلاغةُ مَلْبَسَـاً ودِثَـــارا!
هـــذا الجمـــالُ بهِ فتنــتُ فلا تلُمْ
إن قلـــتُ فيـهِ النظـــمُ والأشعـــارا

- للّه درك شاعرنا الجميل، لا فضّ فوك، لقد وصفت فأبدعت.. سلمتم جميعاً. (قلت)
- سلمت أيها البليغ، ولكنك سمعت الجميع، ولم نسمعك، فأخبرنا ماذا تقول أنت؟ (قال القحطاني)
- يا صديقي في مثل هذا الموقف يعجزُ البليغ، ويتلعثم الفصيح، إنّ جمالها ليس له حدّ، فاعفني من الردّ، وإنّ قسّ بن ساعدة 'خطيب العرب' لو رآها لما زاد عنِ التأمّل، ولو عرفها مجنون ليلى لما استطاع التحمّل، ولكن إذا أردت

أنْ تعرف حسنها، وتقرأ جمالها، فانظر لدهشة الكِتاب وهو يتأمّل فيها!

وقبل المغادرة، سألتُ الجميع عن الكنوز التي اقتنوها من المعرض، قال القحطاني: "اشتريت كتاب 'رجال من التاريخ' لعلي الطنطاوي، وكتاب أوراق الورد للرافعي". أما الحداد فقال: "اشتريتُ ديوان 'القدس أنتِ' للشاعر عبد الرحمن العشماوي، وكتاب 'ثلاثون كتاباً وكتاب' للصديق فهمي". أما عن رأفت فقال: "اشتريت كتاب 'هروبي إلى الحرية' لعلي عزت بيجوفيتش، وكتاب 'للرجال فقط' لأدهم شرقاوي". أما الأستاذ فهمي فقد كان في حصيلته 'وحي القلم' للرافعي، و'لغز أريوس' للترباني، و'خاوية' للعتوم"، أما أنا "ف 'سوار أمي ولأنك الله' لعلي الفيفي، و'أبي اسمه إبراهيم' للعمري، و'دموع على سفوح المجد' لعماد زكي كانوا رفقائي". كان لقاءً جميلاً، جلسنا ما استطعنا، وتحدثنا ما استطعنا، وتأملنا أيضا ما استطعنا، ثم قررنا المغادرة. رفعتُ الفِنْجَان لأشرب من قهوتي العثمانية فإذا بها قد نفدَتْ، أفقتُ منْ خيالي، وإذ أنا في مكتبتي المتواضعة في الرياض!

في وطني الجريح، بينما أصواتُ المدافعِ تملأ المكان، والخوف يدبُّ في الأرجاء، والحربُ أنهكتْ كلّ شيءٍ يمتّ للحياة بصلة، كانَ هناك شبابٌ لم يفارقِ الأملُ قلوبهم، يحلمون بوطنٍ آمن، ومستقبلٍ زاهر. شبابٌ عكفوا على تطوير أنفسهم، تفرّغوا للتعليم والقراءة، لأنهم يعلمون جيداً أنّ العلم والمعرفة متصلانِ بالقراءة اتصالاً وثيقاً، وكما أنّ بناء الوطن يحتاج إلى عقول، فالعقول بحاجة إلى الغذاء. عندما أصْبحَت البندقية السِّلاح السائد جعلوا القلم سلاحهم، وقابلوا النار بصدرٍ من ثلج، والرصاص بباقاتٍ من ورد، ومن بين هؤلاء الصفوة، اثنان هما بطَلا قصتنا. 'البراء' شابٌ في منتصف العشرينات من عمره، متخصصٌ في قسم اللغة العربية، شغوفٌ جداً بالقراءة، حيثما وجدته تراه يقرأ، أو يتحدث عن الكتب. أما الجميلة 'هيفاء' فهي في بداية العشرينات، من عائلة محترمة، مثقفة، تُحبّ القراءة كثيراً، وتَدرس اللغة الإنجليزية.

ذاتَ صباح، أثناء الحديث عن الكتب، يشتكي بعض زملاء البراء منْ صعوبة الحصول على الكتب سواءً كانت ورقية أو إلكترونية، بسبب الأوضاع الراهنة، وضعف الأنترنت. ولأنّ الأبطال فقط هم الذين يحملون همّ الجميع؛ حملَ البراء على عاتقه حلّ المشكلة، فكرّ في طريقة لتسهيل الأمر، ثم اهتدى إلى إنشاءِ مجموعةٍ على "الواتس آب" لتحميل الكتب للراغبين. تواصلَ البراء مع بعض

أصدقائه في مختلف المدن والبلدان وشرح لهم الفكرة، وطلب منهم المساعدة فلبّوا النداء! بعدَ أنْ تمّ حلّ أمر الأشخاص الذين سيترأسون المجموعة، قام البراء بإنشائها على الفور وأضاف بعض أصدقائه الذين قاموا بدورهم بنشر رابط المجموعة بين الطلاب ليصل إلى هيفاء، والتي كانت تعاني أيضاً مما يعانيه البعض. راقتْ فكرة المجموعة لهيفاء؛ انضمّتْ إليها، فقد رأت أنها وجدتْ ضالتها، وأنّ هذه المجموعة ستوفر لها الكتب التي تريدها، ولنْ تضطر بعد اليوم للمكوث طويلاً أمام جهازها للبحث بينَ أزقة المواقع عن كتاب! ذاتَ صباح، تتذكر هيفاء كتاباً قرأَته في طفولتها، وكان لديها العديد من الذكريات برفقته، فطلبتهُ من القائمين على المجموعة، في تلك الأثناء كان 'البراء' متواجداً، فقام بالبحث عن الكتاب ولكنه لم يجده، فأرسلَ توضيحاً بذلك، وبسبب كثرة الرسائل - لكثرة طلبات الكتب - لم ترَ هيفاء الرد، لتأتي بعد يومين وتسأل عن الكتاب مرة أخرى! يُوضّح البراء - للمرة الثانية - أنّ الكتاب غير موجود، ولكن يحدث ما حدث في المرة السابقة! في المرة الثالثة، تُرسل هيفاء رسالة حادة نوعاً ما: "ما هذه المجموعة؟.. لقد طلبتُ هذا الكتاب مراتٍ كثيرة ولكنّني لم أجد تجاوباً!" ليردّ عليها البراء: "وأنا قد وضّحتُ مراتٍ أكثر بأنه غير موجود!" تفاعل بعض الشباب بعد رسالة البراء بـ "ايموجيات" ضاحكة مما أثر في هيفاء فقالت: "المعذرة لم أكنْ أعلمُ من قبل أنني مصابة بعمى الألوان، شكرا لكم!"

أثرتْ رسالتها في البراء فردّ عليها في ردٍ فردي:

- المعذرة أختي الفاضلة على إزعاجك، لم أقصد التجريح، ولكنني وضحتُ الأمر أكثر من مرة، ومتأكدٌ من ذلك، ولو كان الكتاب موجوداً لما بخلتُ به عليكِ.
- أنا منْ يجب عليها الاعتذار أخي العزيز، ربما بسبب كثرة الرسائل لم ألاحظ ذلك.
- لا بأس. تحدث كثيراً. أعتذر مرةً أخرى.
- لم تفعل ما يستحقّ الاعتذار، ثمّ إنّ ما تقومون به هو تطوع منكم ونحن شاكرون لكم ذلك.. جُزيتم خيراً.
- على الرحب والسعة، نسأل اللّه أنْ يوفقنا جميعاً.
- آمين.. شكراً لك على تفهمك.
- أهلا بكِ. تسعدنا خدمتكم على الدوام. على العموم صفحتي مفتوحة لك، يمكنك طلب أي كتاب متى ما أردتِ ذلك.
- هذا منْ تواضعك. شكراً جزيلاً.

وتمر الأيام. يوماً بعد يوم، كتاباً بعد كتاب، تطورت العلاقة إلى مناقشة بعض الكتب التي تتم قراءتها، التعليق على الحالات، التشجيع على الكتابة، لقاءات خاطفة لتبادل الكتب الورقية، وبعضُ المزَحات! تعلقّ الاثنان ببعضهما كثيراً، حتى أنّ علامات الإعجاب بينهما قد بدت واضحةً للعيان، ولكنه الكبرياء الذي يرى في الاعتراف بالحبّ ضعفاً وتنازلاً للآخر. في ذاتِ تواصل، سألتْ هيفاء:

- أبحث عن بعض الكتب الورقية، أين يمكنني أن أجدها؟
- هناك الكثير من المكتبات في المدينة، وهناك متجرٌ مشهور لبيع الكتب الورقية عبر الأنترنت. ما هي الكتب التي تبحثين عنها؟ ربما أستطيع المساعدة.
- رواية 'الفقراء' لدستويفسكي وديوان الرافعي وكتاب 'مسني الشوق' للكاتب فيصل خرمي.

ما إنْ قرأ البراء اسم الكتاب الأخير حتى خفقَ قلبه وارتجف وأردف:

- الكتاب الأخير موجود لديّ وقد قرأته منذ مدة، يمكنني إعارته لكِ إن أحببتِ! والآخران سأرسل لكِ رقم مندوب المتجر وبإمكانك الاستفسار عنهما.
- حسناً، شكراً لك، متى يمكنك إحضار الكتاب؟
- لنلتقي غداً، ما رأيك؟!
- ليكن. سأكون في انتظارك.

عاد البراء إلى كتاب 'مسني الشوق' وقَرأَه من جديد، ولكنه هذه المرة استخدم قلم التخطيط وقام 'بتعليم' بعض النصوص الجميلة، وكتب بعض الكلمات ك تعبيرٍ عن الحبّ الذي لم يستطع البوح به! في الصباح التقيَا، تحادثا قليلاً، أعطاها الكتاب ورحل. عندما فتحت هيفاء الكتاب وجدت عبارةً مكتوبة في أول صفحة: "يحدثُ أحياناً أنْ تكونَ كل شيءٍ بالنسبةِ لأحدهم وأنتَ لا تعلم!" أكْملَت الهيفاء قراءة الكتاب في جلسة واحدة، وانتهَتْ منه بغير الإحساس

الذي بدأت القراءة به، وخاصة بعد قراءة النصوص المحددة باللون الأصفر! في المساء، وعلى الواتس آب:

- الكتابُ جميلٌ جداً، والأجملُ منه ذوقكَ في اختيار النصوص.
- دائماً أختار النصوص التي تشبهني!
- ماذا تفعلُ الآن؟
- أتأمل كتاب 'اعتراف بالحب' لِ نهلة قنديل!
- اعتراف بالحب؟!
- نعم.
- لم أقرأهُ بعد. عمّ يتحدث؟
- لم أقرأهُ أنا أيضاً. ولكن بعض الكتب يمكن التنبؤ بما فيها بواسطة العنوان!
- وماذا فهمتَ من العنوان؟!
- قد يكون يحتوي على طُرق للاعتراف بالحب مثلاً!
- مثل ماذا. مثلاً؟
- قد نُعبر عن الحب بنظرة، هدية، اهتمام، رسالة، أغنية، وربما بعنوان كتاب!
- ماذا تريد أنْ تقول؟
- أريد القول أنني "آخر كتاب لمحمد السالم!" [1]
- منْ أنتَ؟

(1) أهواك.

- "إحدى روائع غسان كنفاني!"[1]
- ومن أنا؟
- أنتِ كتاب لـ" سارة الغامدي!"[2]
- وماذا تريد؟
- كتاب لـ "ماجد عبدالله!"[3]
- وهل تملكُ مَهره؟
- ألا يكفيك أنّني كتاب لـ "محمد السالم!"[4]
- هل يكفي ذلك لبناء عائلة؟
- هو الأهم. الأشياء الأخرى تأتي تباعاً!
- هل تعلم أنكَ كِتابي المفضل؟
- وهل تعلمينَ أنكِ قارئتي المحبّبة!! والآن... ماردكِ على ما قلت؟
- أنا...؟! مسني الشوق!
- احتفظي به حتى آتيكم وعائلتي!

---

(1) العاشق.

(2) حبيبتي أنا.

(3) أحتاج قلبا.

(4) أحبك وكفى.

لقاء على قارعة الحلم

في أحدِ أيام الشتاء الباردة والجميلة، وأثناء زيارتنا لفرع إحدى المكتبات المشهورة في المملكة، والذي يقع قريباً من الحي الذي نسكنُ فيه، صعدتُ إلى الدور الأول حيثُ 'المكتبة' برفقة الأخ عادل، ورحنا كعادتنا نتصفحُ الكتب التي تطالها أيدينا متنقلينَ بينها كالنحل حين يجمعُ الرحيق. بدايةً عند كتب الأدب العربي، مروراً بكتب تطوير الذات، ثم السياسة، الحرب، الروايات، كُتب الشعر، وغيرها. أخذنا جميع الكتب التي أتينا من أجلِ اقتنائها إلا واحداً لمْ نعثُر عليه، سألنا العامل في المكتبة فقال لنا: "أظنه في مكانٍ آخر. انتظـروا حتى أبحــث عنه". اخترتُ كتاب نصوصٍ صغيرٍ لأقرأ منه، وذهبَ الأخ عادل يغوص بين رفوف الكتب، في انتظار العامل أنْ يأتينا بالكتاب الأخير! جلستُ على إحدى الكراسي الموجودة، التي جهّزتها المكتبة لتصفّح الكتب قبل شرائها، وأيضاً لمساعدة الذين لا يملكون قيمتها في منحهم فرصة القراءة، أو هكذا ظننت! بينما كنتُ منهمكاً في القراءة إذ جُلتُ ببصري حول المكان الذي أنا فيه فرأيتُ فتاةً جميلة، أشبهُ ما تكون بالقمر ليلة تمامه، ناصعة البياض ك الشمسِ في عزّ الظهيرة، تختلس النظر إليّ! تفاجأتُ في البداية، وعدتُ إلى القراءة متجاهلاً نظراتها التي أربكتني من شدة حسنها. أما هي ففي كلّ مرة كانت تقترب أكثر، متحججةً بالبحث عن كتابٍ بين الرفوف

القريبة مني. قرأتُ في عينيها حروف الإعجاب! كنتُ ألبسُ أجمل ما لديّ من ثياب لذلك بدوتُ لها أنيقاً، وهي لا تعلم أنها 'البذلة' الوحيدة التي أملكها، والتي أرتديها إذا ما هممتُ بالخروج إلى مكان عام! كان اسم الكتاب واضحاً جداً للجهة التي تنظر منها، الأمر الذي زاد من إعجابها، فأطالَت النظر، وشعرتُ بالخطر! كانت تنظر وكأنّ لسان حالها يقول: "إنه أنيقٌ جداً، ويقرأ في الحبّ والشّعر، لابدّ أنّه مُرهفُ الحسّ، وأنّ فِكره وعقله أنيقَين أيضاً!" أسندتُ ظهري للوراء، أغلقتُ الكتاب وفتحتُ آخر، فازدادت إعجاباً واقتربت أكثر! شعرتُ لحظتها أنّ الدم تجمّد في عروقي، وأنّ قدمايَ ستخونني إذا فكـرت في الهرب. أظنهـا نوَت على الحديث معي. (قلتُ في نفسي)

يا اللّه! أشعرُ أنّ لساني سيخونني! اثبت يا قلب، وأفصح يا لسان! بما أنني حركتُ سواكنها، وملكتُ عواطفها، ونلتُ إعجابها! يجبُ ألا أتلعثم فتغير نظرتها فيّ! (قلتُ مشجعاً نفسي)

لم يعدْ بيني وبينها إلا خطواتٌ قليلة حتى لكأنّها تسمعُ نبض قلبي المتسارع من مكانها! سبقتها رائحتها الجميلة إليّ ف سَرت في داخلي قشعريرة. يا اللّه! وكأنّ الطبيعة كلها امتزجت في تلك الرائحة العطرة والفوّاحة. أخذتُ نفساً عميقاً أعاد الحياة إلى قلبي. قمتُ بترتيب حالي حتى لا أبدو كالأبله في حضرتها، ثمّ تصرفتُ وكأنّ الأمر طبيعيّ. توجهَتْ هذه المرة إليّ بطريقة مباشرة، حتى وصلَتْ إلى حيثُ أجلس، واستأذنَت للجلوس:

- تفضلي. المكان عام. بإمكانك الجلوس حيث شئتِ. (قلتُ مرحّباً)
- شكراً جزيلاً لك.
- على الرحب والسعة.
- اعذر جرأتي، ولكنني أودّ الحديث معك فهل تسمح؟
- يسعدني ذلك. تفضلي إذا سمحتِ.

ما إنْ همّتْ بالحديث حتى قاطعها عامل المكتبة معتذراً ومحدثاً إياي:

- أحضرتُ الكتاب.
- لقد أتعبناكَ معنا. شكراً لك. (قلت)
- لا عليك. تسرنا خدمتكم. (قال ثم اعتذر وغادر)
- أعتذرُ منكِ. لم نقصد المقاطعة، يمكنك المتابعة. (قلتُ لها)
- .....

نظرتُ إليها، فإذا هي شاحبة الوجه، مقطّبة الجبين، لا تكادُ تنبسُ ببنتِ شفه، وكأنّما عاشتْ للتوّ صدمة! تحدثتُ إليها ثانية، لكنها لمْ تردّ، ولم ترفعْ ناظريها عن الكتاب الذي بدا وكأنه حطمَ آمالها، وخيّبَ مسعاها. ثم وقفَتْ فجأة، وهمّتْ بالانصراف! استوقفتُها، وطلبتُ منها أنْ تخبرني ما الذي حدث لها فجأة، لكنها أعرضت عني. كانت عيناها المتلئتين حزناً ما تزالانِ تحملقان في الكتاب فتبيّن لي أنه السبب، والحقيقةُ أنني لم أكن أعرف أنّ هذا الكتاب سيكون صادماً للجنس اللطيف إلى هذه الدرجة! لم أعرف

ماذا أفعل حينها، كان صديقي عادل يراقب الموقف بصمت منذ البداية، وكان يفكر في سبب إعراضهَا المفاجئ، وبسرعة بديهة، تبادر إلى ذهنه موضوع الكتاب فَشكّ أنه السبب فيما يحدث، فأقبل إليّ مُسرعاً ومنقذاً:

- شادي. عفواً.
- أهلاً عادل.
- هل أخذتَ الكتاب؟
- نعم. خذ. هذا كتابك الذي طلبته، حين لم يجدك البائع أحضره إليّ.
- حسناً. شكراً جزيلاً. (وعاد لما كان عليه)

كانت الفتاة ما تزال واقفةً، وما إنْ سمعت الحديث الأخير حتى احمر وجهها خجلاً، فغدا كأنّه بستانٌ من ورد الجوري، وأضاءتْ عيناها ولمعَتْ ك البرق، وشقّت الابتسامة طريقها إليها فازدادت إشراقاً، فغدا وجهها كله كأنّه لوحة فنية ليس في العالم منها اثنتين، ثم جلسَت، وتحدثتْ فأحسنتْ، ووضحتْ ما كان من أمرها، وضحكتْ فبدتْ نواجذها كأنهنّ صفّ من لؤلؤ مرصوص، وأخبرتني أنّ الحوار الأخير الذي دار بيني وبين صديقي كان على قلبها برداً وسلاماً، ولكنها لم تكن تعلم أنّ النيران قد أُضرمت في داخلي ساعتئذ! وفي مجمل حديثها أخبرتني عن ما كان يدور في خلدها، واعترفتْ بإعجابها بي، أما أنا فلم أدرِ ما الذي أعجبني فيها أكثر، جمالها الفاتن؟ أم جُرأتها وحديثها الأشد فتنة؟! وبينما نحنُ

نتحدث، صدر صوتٌ من مكبرات الصوت الموزّعة في أرجاء المكتبة مُنبهاً إلى دخول وقت الصلاة. نهضنا، وقبل الخروج تواعدنا أنْ نلتقي غدا في نفس الزمان والمكان. وافترقنا. ذهبتُ وعادل للصلاة في أقرب مسجد، وفي طريقنا، كان يحدثني عن الكتب، ذاك أوراقه بيضاء، وذاك نسخته أصلية، وذاك غلافه جذاب، وأنا أُوافقه في كل شيء يقوله على غير عادتي! كنت أقول في نفسي: "يا صديقي هل رأيت نسخة أصلية كتلك النسخة في حياتك؟ وهل رأيت جاذبية أشدّ من جاذبية تلك العيون؟ أَتحدثني عن بياض الورق؟! لعمري لكفّها أشدّ من الورقِ بياضاً ونصاعة!"

عدنا إلى المنزل. كان شغفي للقراءة يزداد كلما اشتريت كتباً جديدة، ولكن حدث العكس في هذه المرة، ما إنْ فتحتُ الكتاب حتى تذكرتُ تلك الفتاة، وبدأتُ أُفكر فيها، وأتساءل: "هل ستأتي غداً؟"

ماذا سأفعل إذا لم تأتِ؟ لماذا لم آخذ رقم هاتفها؟ يالي من ساذج! حتى اسمها لا أعرفه! أقنعتُ نفسي بأنها ستأتي، وأنه لا بد أن يكون لها اسم جميل كجمالها ولا شك! لم استطع النوم تلك الليلة، فقد غزا الشوق قلبي، وأمسى داخلي يغلي، وأرّقني الانتظار.

في مساء اليوم التالي، وفي ذات المكان والزمان، التقينا.

يا الله، ما أسعد تلك اللحظة! عند اللقاء، تشعرُ أنّ قلبك يسبقكَ بخطوات، وأنّ توازنكَ قد اختل، تشعرُ وكأنك فاقد الوعي، ولا يعيد وعيك إلا ضمةً عاجلة تلمّ شتاتك قبل أن يستفحل الأمر. ولكنّ

أنى لنا ذلك! ثم إنه لا أصعب من الصمود عند اللقاء إلا اختيار الكلمات المناسبة للموقف! إنّ الكلمات تضيع حين نريدها، وإنْ أتت تأتي عرجاء سيئةَ الخَلْق مشوّهة. تبادلنا كلمات الترحيب ثم جلسنا نقرأ معاً، واستمرت لقاءاتنا بشكل يومي تقريباً، كنا نقرأ فيها الكتب، نتناقش، ونتحدث عن كتّابنا المفضلين، وعن المستقبل. مرّت أيام على هذا المنوال، ولكنّ احتمال هذا الوضع بات صعباً جداً، أردتُ لعلاقتنا أنْ تستمر، أنْ تكون رسمية، أنْ تتشابكَ أصابعنا، أنْ تحتضنَ ورقة واحدة اسمي واسمها، وأنْ ترتوي عيناي منها كما ارتوى قلبي، ولا يتحقق ذلك إلا بالزواج، لذلك قررتُ طلب يدها. حاولتُ جاهداً السيطرة على مشاعري، جربتُ الكثير من الجُمل، كنتُ أعلم أنّ كلماتي ستخونني كالعادة، لذلك كتبتُ كل ما أريد قوله في ورقة. والتقينا! بعد الأحاديث المعتادة أعطيتها الورقة:

«عزيزتي: إنك تعلمينَ عظمَ حبي لك، وإعجابي الشديد بك، وتعلمين أيضاً أنني أحلم أنْ أتأمل وجهك كل صباح، وأن أكتب فيك القصائد، وإني أريد أن أُكمل ديني بك، فهل تقبلين بهذا الغريب زوجا لك؟»

كان قلبي يخفقُ بشدة وهي تقرأ. جمعتُ يديّ، أغلقتُهما، وبدأتُ أنفخُ فيهما، قلقاً من الردّ القادم! أكملَت قراءة النص، أزاحَت الورقة من أمام وجهها، نظرَت إليّ وقد اكتسا وجهها خجلاً وامتلأتْ عيونُها فرحاً، وكأنها وجدَت ما انتظرَته منذ زمن. قرأتُ

في سكوتها وتلعثمهَا علامات الإيجاب والقبول، لم يسعني المكان من شدة سعادتي، ووددتُ لو أصرخ بأعلى صوتي (أحبك). عدتُ إلى المنزل سعيداً أبحث عن صديقي عادل لأخبره، وجدتهُ واحتضنته، أخبرته بالأمر ففرحَ لأجلي، وتمنى لي الخير، واعتذر قائلاً: "اسمح لي الآن يا صديقي، سأسافر غداً إلى مكة في زيارة خاطفة، يجب أنْ أجهّز حقيبتي!" شعرتُ بالحزن لحظتها لأنني سأفارقه، ولكنّ ظنّاً في داخلي يقول لي: "بأنه يدبّر مكيدة!" كنتُ قد جلستُ مرة مع صديقي عادل – بعد اللقاء الأول – وتحدثنا حول موضوع الكتاب، لماذا سبّبَ كل هذا الصدّ؟ والحقيقةُ أننا بعد التقصّي والبحث توصلنا إلى شيء يتعلق بعادات القبيلة كلها وليس الفتاة فحسب، ولكنني لم أقتنع بذلك كله فتجاهلتُ الأمر. اتصل صديقي عادل يسأل عن آخر التطورات في الموضوع، تحدثنا مطولاً، أخبرته أنني كنت أتمنى لو كان حاضراً ليكون أحد شهودي، فقال:

- سآتي لأجلك يا شادي.. وهناك أحد الأصدقاء الذين أثق بهم جيداً سيحضر معي. سنفعل الكثير من أجلك يا صديقي!

ملأَت الطمأنينةُ قلبي بدلاً من الشكّ الذي راودني في بداية الأمر وقلت في نفسي: "لعلي قد ظلمت الرجل!" حددنا موعد الذهاب للمحكمة لكتابة العقد، كانت الأمور تسير على ما يرام، وبشكل أكثر من رائع. في الليلة الأخيرة، فكرتُ بشكل جدّي في الأمر الذي توصلنا إليه مسبقاً، وتساءلت: "ماذا لو كان الأمرُ

صحيحاً؟ ماذا لو انكشفتُ واتضحَ كل شيء؟ كيف سيكون موقفي حينها؟ هل أصارحها؟ وإنْ تركَتني ماذا سأفعل؟" أصابني الفزع لمجرد التفكير، ثم تجاهلتُ الوساوس ونمت! في الصباح، حضرَت الفتاة مع والدها وأحد أقاربها، وحضرتُ أنا في انتظار عادل وصاحبه. المكان مليءٌ بالناس، كلٌّ في شأنه، وكلٌّ في انتظار دوره، تأخرَا، ووالدُ الفتاة لا يكفّ عن السؤال عنهما، وأصبح الموقف متوتراً! بعد الكثير من الهمز واللمز، أتى صديقي عادل فسررتُ بقدومه.

- أينَ صديقك الثاني الذي قلت أنه سيحضر معك؟ (قلت)
- إنه هناك.. (قال وأشار بيده نحو البوابة!)

نظرتُ فإذا بشخصٍ أنيقٍ قادم، أمعنتُ النظر فيه، كأني أعرفه، والغريب أنّ في يده كتابا! يا اللّه! أليسَ هذا جاري وثيق!؟ لا يمكنني وصف الشعور الذي اعتراني عندما رأيته. قلت لنفسي: "لماذا أحضر عادل وثيق؟ واضحٌ جداً أنّ في الأمر شيء، وإلا لما أتى وثيق وبيده كتاب". شيءٌ ما في داخلي صاح: "إنه فخ!" وصلَ وثيق، سلّم علينا، وناول عادل الكتاب.

- طالما اكتملنا هيا لندخل. (قال والد الفتاة)
- عذراً سيدي. هناك شيء لابدّ لكم من معرفته قبل أنْ نتخطى عتبة هذا الباب. (قال عادل)
- ليس هذا وقته.. تخبرنا فيما بعد. (قال والد الفتاة)
- لا يا سيدي. بل الآن وقته. (صمم عادل)

يضجر والد الفتاة، وتهدئه ابنته، وتوجُه كلامها لعادل:

- ما الأمر؟ قلْ ما لديك.
- بما أنني كنتُ السبب في كل ما حدث أردتُ توضيح الأمر إرضاءً لضميري، وحتى لا أحرق قلوباً أكثر. (قال عادل)
- عنْ ماذا تتحدث بالضبط؟ (قالت الفتاة)
- هل تذكرين هذا الكتاب الذي أخذته من شادي عند لقائكما الأول في المكتبة؟ (سأل عادل)
- نعم. أذكره. (أجابت الفتاة)
- هذا الكتاب له وليس لي يا سيدتي. وأنا لا شأن لي به! (قال عادل)

ذُهلت الفتاة. أخذ والدها الكتاب وقرأ العنوان:

"ما يفعله الآباء الرائعون.. 75 استراتيجية لِتربية أطفال ناجحين!". جُنّ جنونه، وسأل ابنته التي بُهتت من الصدمة:

- هل هذا الرجل متزوج، هل كنتِ تعلمينَ ذلك من قبل؟
- هذا كذبْ، هذا الكتاب ليس لي! (قلتُ وقد صُدمت)

أخرج عادل هاتفه واتصل بأحدهم، وإذا بعامل المكتبة يدخلُ علينا، ويصدّقُ على كلّ أقوال عادل! لقد خطّط صديقي للإيقاع بي، وعمل حساباً لكلّ الإنكارات التي سأقدمها! هنا ثارَ والد الفتاة:

- أي إنسانٍ أنت؟ كيف تفعل هذا؟ لماذا كذبت علينا؟

لم أستطع الردّ.. صَمتّ

- إنكم تكذبون. أنا لا أصدقكم. (قالت الفتاة)

تدخل وثيق قائلاً: "إنّ الكثير منْ أصدقائي قد حضروا حفل زفافه، وإن شئتم أحضرتُ لكم صوراً وفيديوهات من حفل الزفاف". أخرج عادل هاتفه قائلاً: "لا داعي لذلك".

أرى الجميع صورةً على شاشة الهاتف، ثم سألني:

- منْ هذا ؟
- هذا الوالد حفظه اللّه! (قلتُ)
- شاهــدوا إذن (وقام بتشغيل الفيديو): "السلام عليكم، كيف حالك يا ولدي شادي؟ سمعتُ أنك ستتزوج، هل الخبر صحيح؟ لماذا تفعل ذلك يا بُني؟ أنت إنسانٌ متزوج!" قطع عادل الفيديو وسألني:
- هل يكذب هذا أيضاً؟

تدمرتُ حين شاهدتُ الفيديو، لم يعد لديّ كلامٌ أقوله، أو وسيلةً أدافع بها عن نفسي فصمَتّ. صدمةُ الفتاة جعلتها تتوقف عن الكلام، فجلسَت على إحدى الكراسي وهي تبكي غير مستوعبةٍ ما حدث بالضبط. ذهبتُ إليها وأنا الآخر في صدمة قائلاً:

- ماذا يعني؟ هل انتهى كل شيء الآن؟ وماذا يعني أنْ أكون متزوجاً، ألا يكفي أنني أُحب..؟
- إنْ كنت تحبني حقاً فاذهب. لا حاجة لي بك. (قالت قبل أن أكمل الكلمة!)

- لكنني لا أستطيع العيش بدونك. ثم ماذا يعني أنّ في عاداتكم يُمنع تزويج الرجل المتزوج، أليس هذا تخلفاً؟ (قلت)
- دعكَ من العادات والتقاليد الآن وأخبرني: "ما ذنبُ تلك المرأة التي سلّمتك قلبها، وصبرتْ عليك، وانتظرتكْ؟ ما ذنبها أنْ تعود لها بامرأة أخرى في الوقت الذي تنتظر فيه عودتك سالما؟ ما الذي جنتهُ حتى تحرق قلبها لتلبي رغباتك؟ هل منَ الرجولة أنْ تقابل صبرها بجحود، ووفاءَها بخيانة؟ أُحبكَ؟ نعم. أُريدك؟ نعم. سأموتُ شوقاً إليك؟ نعم. ولكن اعذرني، أنا لا أستطيع أنْ أشاركك في هذه الجناية! ولا أستطيعُ أنْ أتخيل نفسي مكان زوجتك".

صُعقتُ وأنا في مكاني، شعرتُ أنّ قلبي عاد ينبض بعد توقف، وأنّ الحياة عادت إلي منْ جديد بفضل تلك الكلمات، أما هي فقالتْ كلماتها الأخيرة ثمّ أشارتْ إلى والدها، استندتْ به وقامت، وقبل أنْ تغادر، قالتْ لي: "حافظ على عائلتك، أتمنى لكَ سعادة دائمة، الوداع.. الوداع ".

الأملُ حياةٌ

في يوم العيد، وفي القلعةِ التاريخيةِ التي يزورها الجميع من أجل قضاء أجمل الأوقات برفقةِ الأهل والأصدقاء والتي تُطلّ على المدينة الجميلة منَ الأعلى، كانَ يتأملُ وجهَ زوجته 'سلوى' وهي تُلاعبُ طفلتهما 'حياة'، كانتا تبدوان سعيدتان جداً. كانَ يبتسمُ منْ أعماق قلبه، ويشعرُ بسعادة لم يسبق أنْ شعر بمثلها. اتّكَأَ على ظهره ووضع يديه خلف رأسه وأطلق العنان لذاكرته! عادتْ به الذكريات إلى الزمن البعيد، زمن الوحدة والكآبة والسواد. كانتْ تلك الفترة منْ حياته صعبةً جداً، كان يبكي وحيداً، يتألم وحيداً، ويُفكر كذلك. لم يكنْ لديه أصدقاء حقيقيون، يبادلونه المشاعر، ويفتحون له قلوبهم. ولم تُوليه عائلته ذلك الاهتمام، كانَ صامتاً أغلب الوقت، ولا يبتسم إلا نادراً. على الرغم من أنّ عائلته لم تكن تهتم به، إلا أنها لم تتركه وشأنه، فقد ذاق الكثير من أغلب أفراد أسرته. كانتْ نظراتهم سهامٌ تخلعُ جدار القلبْ، وكلماتهم خناجرٌ تُغرزُ فيه بين الفينة والأخرى، الأمر الذي زاد من انطوائه، وجعلَه يرى منَ الجميعِ أعداءً له. كانتْ حياته أشبه بصحراء قاحلة. لم تُشرقْ شمسَ يومٍ إلا والهموم تُشرق قبلها. لم يعرف في الحياة سوى اللون الأسود، عانى من التَقلّب، كلمة واحدة كانت كفيلة بأنْ تجعلهُ في قمة الإحباط، وكانت روحه تتألم، حتى تعرّف إليها! كانا في مجموعة واحدة في الواتس آب، لمْ يكن يعرفها. حالها

كحال الأغلب في المجموعة. في ذاتِ فراغ، راحَ يحفظُ أرقام الأعضاء، أغلبُ الأشخاص كانوا يكتبونَ أسماءهم، فسهلَ عليه حفظ الكثير، وكانتْ هي منْ بينهم. ذات مساء، بعد أنْ أفرغ حصته اليومية من الكآبة على حائط 'الحالة' وجدَ أنّ اسمها من بينِ المُشاهِدين. استغرب. يبدو أنها هي الأخرى قد حفظَت رقم هاتفه. لكن كيف؟ ابتسم قائلاً لنفسه: "يبدو أنها هي الأخرى لم تجد ما تفعله فقامت بحفظ الأرقام!" ليسَ المهمّ كيفَ حدث هذا، ربما هي صُدفة، بل هي مشيئة القدر. كانت حياة متخصصة في 'علم النفس' عرف ذلك منْ خلال الحالات التي تنشرها، كانَ يشعرُ أحياناً أنّ بعض الكلام موجهٌ إليه، وأنه بحاجة لإفراغ حمولته لكنه كانَ فاقدُ الثقة في كلّ من يحمل الجنس البشري! في ذاتِ مساء، نشرتْ حياةُ صورةً كُتبَ تحتها "صفات تدل على أنّ من وجدتْ فيهم غير مستقرينَ نفسيا وعاطفيا" ذُكر منها عدم القدرة على السيطرة على النفس أثناء الغضب، والتصرف بشكل عاطفي غير عقلاني، والثورة لأسباب تافهة، وأنّ لديهم العديد من العلاقات الفاشلة، وغيرها. شعرَ 'باسم' أنّ هذه الصفات موجودةً فيه، فعلقّ قائلا: "وما الحل؟"

- الحل يكمنْ في معرفة الأسباب.
- وإذا لم تعرفْ الأسباب؟
- إذا لم تستطعْ معرفة الأسباب هنا يتوجب زيارة أخصائي نفسي حتى لا يتراكم الأمر.

شعرَ باسم أنه فتح بعض أوراقه لشخصٍ لا يعرفه، فأنهى الحوار قائلاً: "جميل"، ثم فكّر في كلّ ما حدث. ما معنى طبيب نفسي؟ وهل فعلاً يعاني من اضطراب نفسي، ويحتاج إلى زيارة طبيب؟ إنه غالباً يسمعُ بعض زملائه يقولونَ ساخرينَ عندما يمرّ بجانبهم "أتى المريض النفسي!" هل هو حقاً كذلك؟ ثمّ تركَ التفكير في ذلك محاولاً أنْ ينام. قطعتْ قبلةٌ مفاجئة منْ طفلته حياة سيل الذكريات الذي كان يخترق تفكيره. احتضنها وراحَ هو الآخر يُقبلها.

- أينَ شردتَ أيها الوسيم؟! (قالتْ سلوى)
- في الماضي!
- ألستَ سعيداً في الحاضر كي تفكر في الماضي؟ (قالت سلوى وهي تُمسكُ بيديه)
- بلى يا عزيزتي، أنا سعيدٌ جداً، ولكن تذكرُ ما حدث في الماضي يُشعرني بمقدار السعادة التي أنا عليها الآن.
- الفضل بعد اللّه يعودُ للدكتورة حياة، فَقدْ كانَ لها دور بارز في التّحسن الذي وصلنا إليه.
- نعم. نعم. بالمناسبة هل تحدثتِ معها؟

قطعَ صوتُ رنين هاتفها حديثهما. رفعت الهاتف: "إنها هي". ابتسم باسم قائلاً: "بنت حلال!"

تحدثتْ سلوى وحياة مطولاً، وأوصلتْ سلامها إلى باسم، الذي قال:

- إنّ سرّ نجاح الدكتورة حياة يكمن في معاملتها لمرضاها على أنهم إخوة لها، انظري. حتى بعد أنْ انتهى علاجنا عندها ما زالت تتصل بنا وتطمئنّ علينا.
- نعم. نعم. الطبّ النفسي يُخاطب الذات البشرية بشكل عام، يُعالج الأفكار، فتهدأ المشاعر، وتسمو الروح، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذا حصلت الثقة بينَ المريض وطبيبه، والطبيب الناجح يعرفُ ذلكَ جيداً. (ردتْ سلوى) ثم أردفتْ: هل ما زلت تتذكرُ أول يوم تقابلنا فيه؟
- وهل أستطيع أنْ أنسى ذلك اليوم؟! كانَ ذلك في مركز الأمل الذي تملكه الدكتورة حياة، كنتُ أنا في آخر جلساتي وكانت زيارتكِ الأولى للمركز. أذكرُ جيداً كيف أنّ قلبي خفق بقوة عند رؤيتك!
- أنا أيضاً شعرتُ بشيء ما يشدني تجاهك، ظننته بادئ الأمر اضطراباً نفسياً، لكنه كانَ اضطراباً قلبياً، وحباً سرمديا! (قالت سلوى وهي تشدّ على يديه)
- أخبرتِني أنكِ تعرفتِ على الدكتورة حياة قبل أنْ أتعرف عليها بفترة طويلة، لماذا لم تزوريها من قبل؟
- يا عزيزي أنتَ لا تعلم ما يُقال عن هذا الطبّ في بلادنا. إنهم ينظرون إلى الطبيب على أنه مشعوذ، ويستخدم السحر، والبعض يدّعي أنه يتنافى مع الدين والأخلاق وهذا خطأ، وينظرون إلى المريض على أنه مجنون، ولا أحد يرضى لنفسه أو لقريبه أنْ يُلقبَ بهذا اللقب، لذلك ظللتُ مدةً

طويلة حبيسة الغرفة، ولم يسمح لي أهلي بهذه الخطوة إلا بعد العديد من محاولات الإقناع والكثير من التوسّل.

- معكِ حق. إنّ للجهل بهذا العلم يدٌ أيضاً، وكذلك للإعلام الذي يصورهُ بغير حقيقته. حتى أنا في بادئ الأمر تعرضتُ لمثل هذه التُرهات، وسمعتُ كثيراً الجملة الشائعة: "هل تريد أنْ يقول الناس عنك أنك مجنون!" لكنْ مشيئة اللّه فوق كل شيء.
- كيف كانتْ بدايتك مع الدكتورة حياة؟
- تعرفينَ كيف تعرفتُ إليها. بعد تلك الرسائل الخاطفة التي كنا نتبادلها، والشعور الذي يعتريني عند كل جملة تكتبها ونصيحة تُقدمها فتحتُ لها قلبي وعرضتُ عليها مشكلتي، فكانتْ تنصحني بزيارة مركزها لأستفيد أكثر، ولكنكِ تعلمينَ أنّ الأمر لم يكن بتلك البساطة، لذلك استمرّ إرشادها لي عن طريق الواتس آب فقط، حتى شعرتُ أنني أقوى وأكثرُ حرية وتفاؤل، فكانت زيارتي لها نتيجة من النتائج الإيجابية لنصائحها وإرشاداتها، حيث أخرجتْني من دائرةِ الصمت التي كنتُ مسجوناً فيها، وأعادتْ إليّ الثقة المفقودة في نفسي وفي الناس. ومن خلال زياراتي لها تعمقَتْ كثيراً في مشكلتي ونصحتني بإفراغ حمولتي كي لا أعود إلى الدائرة المُظلمة، هل تُصدقين؟ لقد كانت تستمع إليّ بالساعات دون كللٍ أو ملل! أما عنْ كُرهي للحياة وللناس فقد قالت أنّ الأمر ردّ فعلٍ طبيعي لما

أتعرض له منْ إهمال من العائلة، وتهميش منَ الأصدقاء، وأنّ علي أنْ أتقبل نفسي كما هي وأتصالح معها كي أستطيع الاستمرار. وبعد أنْ تطورتْ حالتي أطلقتني للحياة مع نصيحة وهي تضحك: "يجبُ عليك أنْ تجدَ شريكةً تبادلها همومك وتعتني بك، لا أريد أنْ أنشغل بك ثانية!". وعندما خرجتُ من مكتبها صادفتك، وكأنّ اللّه أرسلكِ لي! عدتُ بعدها بفترة وسألتُ عنكِ، فأخبرَتني أنكِ لم تعودي تزوري مكتبها وأعطتني عنوانك وبقية القصة تعرفينها!

(تنهدتْ سلوى قائلة):

- الحمد للّه. ربما لو لم نذهب إلى مركز الدكتورة حياة ما كنا لنلتقي وتجتمع أقدارنا. أيقنتُ أنّ في كل شرّ خيرٌ كثير. وأنّ اللّه الذي كتب الداء كتب له الدواء.
- نعم يا زوجتي الغالية. والآن هيا إلى البيت لدينا أعمال كثيرة سنقوم بها. لا تنسي أنّ عائلة حياة ستزورنا غداً!

حبٌّ أعرج

ما أوحشَ الليلَ عندما يسودهُ الحنين، ويملؤه الشوق، وتكسوه الوحدة! عندما يرجعُ شريط الذكريات إلى الخلف، تُعرض الآلام بالعرض البطيء، و تغتالنا غصةٌ حارقة، وتخرج من أعماق أعماقنا تنهيدة. البارحة، عادتْ بي الذاكرة إلى لقائنا الأول، قبل بضع سنين، هناك على باب معهدٍ لدراسة اللغة الإنجليزية، في مدينتنا الجميلة، المكسوّة بالخضرة والحبّ. أتذكرُ الموقف جيداً، لمْ أتحدث معها حينها، لكن عينايَ تحدّثتا، فِكري تحدّث، وقلبي كذلك.

آهٍ يا هند، يا نبض القلب، وتوأم الروح، يا وشم الصدر، وجرح العمر! تُرى هل ما زلت تتذكرينَ ذلك اللقاء مثلي، أم أنّ الزمنَ قد أنساكِ وتوّهكِ عني؟ هل شعرتِ بالحبّ للوهلة الأولى كما شعرت، أمْ أنّ اللقاء كانَ عادياً بالنسبة لكِ؟ لسنوات، اعتبرتُ المعهد مكان ميلادي، وتاريخ لقائنا تاريخ ميلادي! لكنّ أماكنَ ولادتنا قد تكون ذاتها أماكن نومنا الأبدي، وتواريخ الميلاد قد تكون ذاتها تواريخ الوفاة أيضاً. هل تعلمينَ يا هند؟ لقد أحببتكِ منذ النظرة الأولى، فعلتِ في داخلي ما لم تفعله امرأة غيرك، أحدثتِ خللاً في الأنظمة الدفاعية وأسرتِ القلبَ واللبّ. كنتُ أراقبكِ أثناء المحاضـــرة، أتأمـــلكِ، أمـــارس هوايتي المفضلـــة، "التحديق فيكِ،

والاستماع إليك" وكان حبك يكبر كل يوم. مناقشاتك، أجوبتك، مشاركاتك، الأحاديث التي تتخلّل اليوم الدراسي، والكلمات الإنجليزية التي كنا نتراشق بها كمجموعة أصدقاء، كلها كانت تفعل في قلبي فِعلَ السحر! لقد كنتِ جريئةً جداً يا هند، كما كنتِ جميلةً جداً وذكيةً جداً، لكنني كنتُ أشبهكِ في واحدة فقط! لقد دخلتُ المعهد مجبراً على تعلم الإنجليزية، لكنني أحببتها حين سمعتكِ تتحدثين بها، وأتقنتها لأنّها تسافر بي إليك. مرت سنة يا هند، منذ اللقاء الأول، والنبضة الأولى، وقلبي ينبضُ باسمك، وعيناي لا ترى غيرك، وأحلامي لا يزورني فيها إلا طيفك. لكنني يا هندُ لم أكنْ أعلم عن مشاعرك تجاهي شيئاً، هل تُحبينني كما أحبك، أم أنني مجرد زميلُ دراسة؟ هل يشتعلُ قلبك شوقاً إليّ، أم أنّ الشوقَ لا يزورِكِ أبداً؟ مرتْ سنة يا هند، وأنا أخفي هذا السرّ الحارق في داخلي، أُخبئه بيني وبين قلبي، أُوبخُ عينايَ إنْ أبدتْ بريقاً عند رؤيتك، وأعاقبُ نفسي إن أبدتِ اهتماماً فوق العادة بك. لمْ يكن الأمر سهلاً يا عزيزتي، فلا شيء أصعبُ من الحبّ إلا كتمانُ الحب. ذات مساء، استشرتُ عقلي، استخرتُ ربي، وقررتُ خوض المعركة، استجمعتُ قواي، وقفتُ مراراً أمام المرايا في محاولةٍ لِلَملمَةِ الكلمات والتحكم في تعابير الوجه، كانَ لزاماً عليّ أنْ أعترف لك بحبي، فأنا لمْ أعدْ أطيقُ أنْ تريني غريباً وفي قلبي لك كل هذا الحبّ! في الصباح، خرجتُ من المنزل كمن يخرج من معركة ملاكمة غيرِ متكافئة، عينايَ متورمتان من قلة النوم، عضلاتي تؤلمني من شدة التوتر، ومظهري يوحي بأنّ صراعاً عظيماً

قد حدث البارحة! بعد انتهاء المحاضرة انتظرتك، استأذنتك للحديث، مشينا، كانتْ عينايَ تجولانِ في الأماكن، لم أستطع النظر في عينيك خوفَ الغرق، بعد مرورِ دقائق من الحديث الجانبي سألتِني عن الموضوع الذي كنت سأحدثكِ به، والذي لم أستطع لملمةَ حروفه بعد، أخبرتكِ وعينايَ لا تستقـرانِ في مـكان، ويدايَ تحتضنانِ ملازمي:

- في الحقيقة يا هند إنّ الحديث عن الموضوع يبدو صعباً بعض الشيء، تعلمينَ جيداً أنني لستُ بتلك الجرأة!
- لا يوجد شيء يستحقّ كل هذا الخجل، نحنُ زميلان وصديقان أيضاً، أخبرني يا سالم.
- لقد بدأ الأمر منذ سنة، وإلى الآن لم أتجرأ على الحديث، لكنني قررتُ الإفصاحُ عنه مهما كانت العواقب وسأتحملُ نتائج هذا القرار أيضاً.
- لا تلعب بأعصابي أكثر، تحدث وحسب!
- لا أُحسنُ ترتيب الكلمات في مثل هذه المواقف، لذلك اعذريني إنْ بدأ الأمر كالصدمة بالنسبة لكِ!

قلتِ وأنتِ تسرقين نظرة إليّ:

- Don't worry my friend![1]

تمالكتُ نفسي وشددتُ على قلبي، وأخبرتكِ عن مدى حبي لك، عن شدة إعجابي بك، وعن رغبتي في أن أُكمل العمر برفقتك، كان

(1) لا تقلق يا صديقي.

الأمرُ صعباً لكنني فعلته في النهاية. كانَ ردكِ مختصراً يا هند، أخبرتني أنني إنسانٌ طيب، جميل وخلوق، ثم استأذنتِ للمغادرة! كان يظهر عليك الارتباك، لقد تفاجأتِ بما سمعتيه، رعشةُ الحب الأولى تجعلُ الإنسان يبدو أبْلهاً، أو هكذا خُيّل إليّ! في الأيام التالية، زادتْ لقاءاتنا، تعرفنا إلى بعض أكثر، كان الحبّ يُزخرف طرقاتنا، و يُنير عتمتنا، و يجعلنا خفيفَين كريشة. لقد انكشفتُ أمامك بكلّ محاسني ومعاييي، لم أُخفِ عنك شيئا يتعلق بي، كما أنكِ فعلتِ ذلك إلا قليلاً! أذكرُ في مراتٍ كثيرة، عندما كنتُ أتجنب النظر في عينيك، كنتِ تستغربين ذلك مني، وتسألين: "هل قالوا لكَ أنني من آكلي البشر، لماذا لا تنظر إليّ مباشرة؟" وكنتُ أضحكُ وأُغير الموضوع، وأعاود الفعل من جديد. لم تكوني من آكلي البشر يا عزيزتي، لكن عيناكِ كانتا من آسري البشر بلا شك، لذلك كنتُ أتحاشى الوقوع في الأسر! بعد شهور من محاولتكِ لتغييري استجبتُ لكِ، نظرتُ إليك النظرة الأولى، سلمتُ نفسي لعينيك، غرقتُ بالمعنى الفعلي، كنا في باحةِ المعهد، في أحدِ الأيام الجميلة، التي جمّلها حضورك. قلتُ لكِ بعد أنْ أفقتُ من سكرتي:

- You have a beautiful eyes. It Fascinated me![1]

عندها ابتسمتِ، وذبتِ خجلاً، فزادتْ عيناكِ جمالاً، وعرفتُ الضياع الحقيقيّ في عذوبة قلبك الصغير. ولكن في الحياة، لا شيء يكتمل، هذا ما تعلمناه منذ الصغر. حدثتُ أمي عنكِ يا هند،

(1) لديك عيون جميلة. لقد فتنتني (سحرتني).

أخبرتها أنني أحبك، حدثتها عن أخلاقك، عن جمالك، عن أهلك، فقالت لي ما تقوله كل أمٍ عزيزة: "إذا كنتَ فعلاً تُحبها فدعني أذهب لخطبتها، أما إذا كنت تلهو فلا تفتح الموضوع ثانية أمامي" أقسمتُ لها على حبك، وطلبتُ منها أنْ تنتظر قليلاً حتى يكون الوقت مناسباً، عندها تذهب لزيارتكم. عندما التقينا صباحاً أخفيتُ عنك ما تحادثناه أنا وأمي البارحة، كنتُ أريد أن أُفاجئكِ، لكنني تفاجأتُ بك! أثناء حديثنا، تكلمنا عن طموحاتنا وأحلامنا، أذكرُ ذلك جيداً، كان قبل شهر رمضان بأيام، ذاك الحديث الطويل الذي لا يمكن نسيانه، والذي كان منه:

- أحلمُ بامتلاك آيفون7! (قلتِ)
- لا يغلى عليكِ، يوماً ما سأهديكِ إياه!
- حقاً! متى يا سالم؟
- بعد العيد إن شاء اللّه!
- بعد العيد! ربما لنْ تراني.
- ولماذا لن أراكِ؟
- لديّ ظروف!
- ظروف ماذا، هل ستتزوجينَ أم ماذا! (قلتها وأنا أضحك)
- لا، قلتُ لك لديّ ظروف. (قلتِ وأنتِ تشيحين بوجهك عني)

لم أكن أعلم ما هي الظروف التي ستمنعكِ من رؤيتي يا هند، لم أكن أعلم إن كان كلامك صحيحاً أم مجرد كلام عابر، لكن الشكّ ما انفكّ! انتهى آخر يوم دراسي وافترقنا. بعد العيد أخبرتكِ

أنني لن أستطيع الحضور إلى المعهد، فلديّ بعض اختبارات القبول في المجال الذي أنوي الدخول فيه، وسيتوجب عليّ الغياب لزيارة بعض المحافظات. كان ذلك الشهر هو الأخير لك في المعهد، حالفني الحظ وعدتُ قبل أن تغادري، حادثتني عبر الواتس آب، أخبرتني أنكِ تريدينَ مقابلتي، حضرت، تحادثنا قليلاً قبل أن تقطع بعض المعلمات حديثنا فخجلنا وافترقنا! في المساء، أخبرتكِ أنني حزينٌ جداً لفراقك، وأنني لم أستطع تقبل الأمر، كنتِ في الطرف الآخر من المحادثة هادئة جداً، على غير العادة. بعد أيام، أخبرتُ أمي أنني لم أعد أطيق العيش بدونك، وأنّ عليها الذهاب لخطبتك، فرحبت بالفكرة ترحيباً عظيماً. كنتُ أنتظر عودة أمي بفارغ الصبر، أنتظر أجمل خبر في حياتي، أنك ستكونين لي إلى الأبد، لكن أحياناً، فرحتنا الكبرى قد تتحول إلى مأساتنا الكبرى، وسعادتنا الجارفة، قد تصبح تعاسةً حارقة، وهذا ما شعرت به عندما قالت لي أمي: "يا ولدي هند مخطوبة منذ شهر!"

لمْ أدرِ بمَ شعرتُ حينها، لكنه بالتأكيد كان عظيماً، لقدْ أصبح ثقباً في الذاكرة، ووشماً في جدار القلب، ووجعاً يرافقني حيث كنت. لماذا يا هند؟ لماذا فعلتِ ذلك بي؟ أينَ ذهبَ الحبّ، الرسائل الليلية، الكلمات العذبة، والشعور الجميل؟ أنا الذي كنتُ لكِ كتاباً مفتوحاً، لماذا أخفيتِ عني بعض أوراقك؟ إذاً هذه هي الظروف التي قلتِ أنها ستمنعك من رؤيتي! آهٍ يا هند، بماذا استحقيتُ منكِ هذا، ماذا جنيت؟ تذكرتُ الآن سؤالك عن 'الفحص الشامل' وعن سعره!

قلقتُ حينها وسألتكِ إنْ كنتِ تعانين من مرض ما، لكنك قلت أنه مجرد سؤال للمعلومة فقط! لكنه ليس كذلك، فنحن أبناء هذه المدينة المشؤومة من عاداتنا عمل فحصٍ قبل البدء في مشروع الزواج للتأكد من سلامة الجيل القادم. في الليل، أرسلتِ لي رسالة تقولين فيها:

- You are my best for ever but I'm looking for yourrights.(1)

كانتْ هذه جملتكِ الأخيرة، بعد أنْ أعطيتِني ظهركِ ذاتَ وداع، لتحتضِني يد ذلك المجهول الذي فضلتيه على من قلتِ أنه الأفضل! كانتْ تلك الكلمات التي ظننتِ أنها مرهماً، وأنها ستخفف عني عبء فراقك كالملح على الجرح، بل أشدّ وقعاً على القلب من الفراق نفسه! هلْ حقاً تُفكرِين بمصلحتي!؟ كنتُ أحسبُ أنني أعرفُ مصلحتي جيداً. كنتُ أحسبُ أنكِ سعادتي. كنتُ أحسبُ أنكِ تفكّرينَ كما أُفكر، وتشعرينَ بما أشعر. لكنني الآن أشكّ بأنكِ أحببتني يوماً، بلْ أكاد أجزم أنكِ لم تفكري يوما إلا في نفسك، وأنكِ صدقتِ في نصفِ الجملة وكذبتِ في النصف الآخر، وأنّ قصة الحب لم تكن يوماً حقيقية بالنسبة لك! أُبشركِ. فراقكِ لمْ يهدّني. غيابكِ لم يصنع مني مجنوناً. صحيحٌ أنكِ شيءٌ عالقٌ في الذاكرة الحزينة لكنك بالمقابل أهديتِني درساً. مثالاً. ونصيحةً مجانية. أيا هندُ... بعدكِ قدْ أنهيتُ دبلوم الإنجليزية بدرجة امتياز!

(1) أنتَ الأفضل إلى الأبد، لكنني أفكر بمصلحتك.

بيتر شابٌ روسيّ، ورث شركةً عن والده وأدارها لعدة سنين بشكل جيد، وفي الآونة الأخيرة تغيـــرت الأمـــور كثيراً، بـــدأت المبيعات تنخفض، والإنتاجية تقلّ، والأمور من سيء إلى أسوأ. فعلَ بيتر المستحيل من أجل الإبقاء على شركة والده – الذي يحبه كثيراً – قوية ومتماسكة. أحضر الخبراء وعمل الدراسات، أنزل الإعلانات وأقام المهرجانات، وزّع الهدايا وأجرى التخفيضات، ولوّن المعارض بألوان جذابة، وغير ذلك الكثير. كل ذلك لم يأخذ مساره، ولم تُجنَ ثماره، فتسلّل اليأس رويداً رويداً إلى قلب بيتر المسكين. مضت الأيام والشكاوى تتكرر، ومبيعات الشركة في تناقص مستمر، والأمور ساءت كثيراً. في تلك الليلة الفاصلة يرن هاتف بيتر، يحدثه أكبر محاسبي شركته: "سيدي. الأمورُ سيئة للغاية، نحن نحتاج إلى معجزة، وإذا لم تتصرف بسرعة فستنهار الشركة نهائياً".

خرج بيتر من منزله لا يدري ماذا يصنع، لم يترك طريقة إلا جربها، ولا نصيحة إلا طبقها، لكن دون جدوى. دخلَ المسكين إلى الحانة، شرب وشرب وأكثرَ، ثم خرج ثملاً لا يدري إلى أين تقوده خطاه. أثناء ترنحهِ في أحد أزقة موسكو رأى في أحد الأركان عجوزاً مسكيناً، كسا الوقار ملامحه، وارتسمَت ابتسامة القانع على وجهه، و أوحتْ هيئته الرثة على خبرته الواسعة في الحياة. نظر بيتر

إلى العجوز فإذا به يشير إليه بالاقتراب، جلس بيتر وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، صبّ العجوز قهوةً ليشرب بيتر، وقام بمسح وجهه بالماء، عندما صحى مما هو فيه، وعادَ إليه بعض عقله، سأله العجوز عن مشكلته، وعن ماهية الشيء الذي قاده للشرب بهذه الطريقة الفظيعة. أخبره بيتر بقصته كاملةً، فابتسم العجوز! تعجب بيتر وسأله عن سبب ابتسامته، فقال له العجوز:

- هل تذكر الشركة الفلانية التي انهارت قبل فترة منَ الزمن بعد سنينٍ منَ الريادة؟
- نعم. لقد قرأت عنها. كان ذلك قبل أعوامٍ كثيرة!
- لقد كنتُ أعمل فيها في تلك الأيام.
- حقاً؟! (قال بيتر باندهاش)
- نعم يا بنى.
- ولماذا انهارت؟
- إنّ الأسباب كثيرة يا عزيزي، ولكنني أستطيع أنْ أذكر لك أهمّها: "إنّ أهــمّ الأسباب التي جعلــتْ من قبــلك يستحقون ما حدث لهم أنهم كانوا يهملون مراقبة العمل بأنفسهم، ويعتمدون في التقييم على 'مُخبريهم'، وكانوا لا يعدلون بين العاملين سواءً في العمل أو في الأجر ولا حتى في العقوبات، وكانوا إذا أخطأ فيهم المدير تغاضوا عنه، وإذا أخطأ فيهم العامل عاقبوه، وكانوا لا يلقون بالاً لشكاوى العاملين واحتياجاتهم. واعلم يا بنيّ أنّ الإهمال والظلم

والفساد والرياء، يهدمـــون دُولاً، فما بالك بمجموعة شركات، فاجلس مع نفسك وانظر أين أخطأت".

فعلتْ كلمات العجوز فعلها، عاد بيتر إلى منزله وفي صباح اليوم التالي شرع بتطبيق نصائح العجوز تطبيقاً حرفياً، ولم يمضِ عام على الحادثة إلا وكانت الشركة من أنجح الشركات في روسيا.

رُمّانة الأندلس[1]

في أحدِ الايام الجميلة، وبينما أنا عائدٌ من روضةِ 'الفيحاء' برفقة ولدي برهان، رنّ هاتفي العتيق! تفقدته فرأيتُ مُذكرةً في برنامج 'جوجل كيب' بعنوان 'حان الوقت' فتحت المذكرة، وجدتُ تذكيراً بمرورِ خمسةِ أعوامٍ على الزيارة التاريخية الأولى، التي كانت إلى عاصمة الخلافة العثمانية 'اسطنبول' عادتْ بي الذاكرة إلى هناك، وتذكرتُ اتفاقاً لي مع الدكتور فهمي، بحثتُ عن رقم هاتفه واتصلتُ به:

- مرحباً.
- السلام عليكم.
- وعليكم السلام و رحمة اللّه و بركاته، أهلاً بالرفيق.
- كيف حالك؟
- بنعمةٍ من اللّه وفضل.
- أين أنت، ماذا تفعل؟.
- أنا في المكان والعمل المعتادان!
- لقد حان الوقت!
- حان الوقت لماذا؟ ماذا تقصد يا بليغ؟

---

(1) هذه القصة الثانية من سلسلة "السفر إلى التاريخ"، أما القصة الأولى فكانت بعنوان 'قهوة عثمانية ' وتم نشرها في كتاب "ثلاثون كتاباً وكتاب" لـ فهمي عبدالمعز.

- يبدو أنكَ قد شِختَ يا صديقي!
- أنتَ تعلم مشاغل الحياة، أخبرني لعلي قدْ نسيت!
- الأمر لا يتمّ على الهاتف، أنا في طريقي إلى البيت لنلتقي مساءً.
- حسناً. أنتظركَ حيثُ كلّ مرة!
- اتفقنا إذن. إلى اللقاء.
- إلى اللقاء.

في المساء التقينا. كالعادة في المكتبة العامة. كل إنسان يميل إلى ما يهوى. ونحن نهوى الكتب، ونعشق رائحتها العطرة. لذلك كانت المكتبة العامة مكان لقائنا الدائم. كان الدكتور فهمي قد سبقني إلى هناك:

- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. أهلا بليغ.
- أهلا بك دكتورنا.
- أما تزال مصمماً على زرع الألقاب بيننا؟!
- ليستْ مجرد ألقاب. نحن نعطي لكلّ ذي حقّ حقه!
- لكنني لم أحصل على الدكتوراه بعد!
- لا يهم. إنها مسألة قناعة شخصية، أيضاً هي مسألة وقت، ستحصل عليها إنْ شاء الله.
- إنْ شاء الله. أعلم أنني لنْ أستطيع إقناعك، لكن دعنا في المهم. ما الأمر، ماذا كنت ستقولُ لي؟

- يا سيدي انتهت السنوات الخمس، يجب علينا اختيار الوجهة المقبلة، وترتيب الأمور!
- .....
- ما بكَ يا دكتور!؟ هل نسيت رحلتنا إلى عاصمة الخلافة العثمانية، ألم نتفقْ حينها على رحلة أخرى بعد خمس سنوات؟ ها هو الوقت قد حان!
- يا اللّه! لقد نسيتُ الموضوع تماماً.
- الأمرُ طبيعي جداً. بينَ عملك أستاذاً في الجامعة، وعملك في إدارة مؤسسة واحة الثقافة، وكذلك تأليفك للكتب، وإدارة العديد من المجموعات الثقافية، لنْ تجدَ وقتاً لتذكر ذلك بالطبع! ما رأيك... أين ستكون الوجهة القادمة؟ (قلتُ باسماً)
- التاريخ يا صديقي. نريد زيارة التاريخ.
- هناك الكثير من البلدان التي تعجّ بالتاريخ. مصر. بغداد. دمشق. القدس. المغرب العربي. الأندلس.
- الأندلس. نعم الأندلس. إنها حضارة عريقة وتاريخ ممتدّ.
- أيّ مدينة سنزور بالضبط؟
- آخر الحصون. غرناطة.
- على بركة اللّه إذن. يجب علينا الآن أنْ نُخرج 'الهكبة'[1] وننظر ماذا لدينا، وإنْ نقصنا شيء نتدبر الأمر!

---

(1) الهكبة: مصطلح عدني، وهو عملية ادّخار للمال لوقتٍ ليس بالقصير، لعمل شيء أو اقتناء شيء في المستقبل. وللهكبة أنواع لا يتسع المقام لذكرها.

- أراكَ قدْ دخلتَ في جوّ عدن سريعاً!
- لابدّ من التأقلم يا رفيق! بالمناسبة... ما رأيك أنْ نخبر الأستاذ سفيان عن أمر الرحلة؟ ربما يتحمّس للسفر معنا!
- فكرة مذهلة. دعنا نتحدث إليه.

تحدثنا إلى الأستاذ سفيان عبر اتصال فيديو، رحب بالفكرة ترحيباً عظيماً، وأخبرنا أنه مستعدّ للذهاب في أي وقت، الأمر الذي أسعدنا كثيراً.

- حسناً يا دكتور... ها قد اكتمل الفريق. بقي الأمر عندك. قم بترتيب الأمور ووافنا بالمستجدات.
- إن شاء اللّه. إن شاء اللّه.

وجاءَ اليوم المنشود. أخبرَنا الدكتور فهمي أننا سنسافر إلى المغرب العربي ومن هناك إلى إسبانيا، وأنّ لديه صديقاً سيستقبلنا هناك. قدِمَ إلينا الأستاذ سفيان منَ المكلا. كنا في انتظاره في المطار. قمنا بالإجراءات اللازمة، وفي العاشرة صباحاً قرأنا دعاء السفر، وأقلعت الطائرة. في الجوّ، سرحَ الأستاذ سفيان ثم تنهّد.

- ما بك يا سفيان، أين سرحتْ؟ (قال فهمي)
- وأنا أتفكر في الطائرة، تذكرتُ العالم المسلم عباس بن فرناس، الذي كان له الفضل في اختراع الطائرة، فقد كان مِن أوائل الذين حاولوا في هذا المجال ولكن الغرب وصفوه بالمجنون، ونسبوا اختراع الطائرة إلى 'الأخوين رايت' ونحنُ صدقنا ذلك. (رد سفيان)

- لم يسرقوا هذا فحسب يا صديقي! لقدْ سرقوا كتبنا واختراعاتنا وتاريخنا بالكامل، وما ذكره جهاد الترباني في كتبه التاريخية إلا غيضٌ من فيض، لكن لا تأسف، نحن من سمحنا لهم بذلك بضعفنا ولكننا سنستعيد تلك الأمجاد. ويعود كلّ حقّ إلى صاحبه. (قلت)
- إن شاء اللّه. إن شاء اللّه. (رد سفيان).

بعد 7ساعات في الجو وصلنا مطار ابن بطوطة الدولي، في مدينة طنجة، وسُمي المطار بهذا الاسم نسبة للرحالة المغربي ابن بطوطة الذي ولد في هذه المدينة. غادرنا المطار. كانت الساعة تُشير إلى الخامسة مساءً بتوقيت مكة المكرمة (الثالثة مساءً بتوقيت المغرب). استقلينا إحدى سيارات الأجرة.

- إلى أينَ يا شباب؟ (قال السائق)
- في الحقيقة لا نعلم إلى أين! (قلتُ مازحاً)
- يبدو أنها المرة الأولى التي تزورون فيها المغرب.
- نعم. نعم. إنها أول مرة. (رد سفيان)
- من أي البلاد أنتم؟ (سأل السائق)
- نحنُ من اليمن يا صديقي. (قال فهمي)
- أهلاً بأهل اليمن. (قال السائق وقد تَهلل وجهه)
- أهلا بك أخا العرب. (قال سفيان)
- هل هناك مكان تودّون النزول فيه؟ (سأل السائق)

- في الحقيقة نحنُ ذاهبون إلى إسبانيا، نريدُ أنْ ننزل في فندق قريب من ميناء طنجة، لأننا سنسافر عبر البحر. (قال فهمي)
- حسناً. الأمر عندي.

وقفنا عند أحد الفنادق القريبة من ميناء طنجة المتوسط، حملنا حقائبنا ودخلنا الفندق، كان السائق المغربي الذي عرفنا فيما بعد أنّ اسمه عبد الرحمن ما زال معنا، وقبلَ أنْ نصعد إلى الأعلى، ودّعنا الأخ عبد الرحمن الذي قال عندما أردنا إعطاءه أُجرته: "ليس من عادتنا أنْ نأخذ مالاً من الضيوف". دخلنا الشّقة، ارتمى كلّ منا على سريرٍ كنتيجة للتعب الذي مررنا به، وفجأةً أخرج سفيان خريطةً للمغرب العربي وراح يتأمل فيها.

- عن ماذا تبحث؟ (سألت)
- عن جامعة القرويين. (أجاب)
- جامعة القرويين! (قلت مستغرباً)
- يبدو أنكَ لم تقرأ في تاريخ المغرب العربي يا بليغ. (قال فهمي)
- أقرأ أحياناً في كتب التاريخ، لكنني كما تعلمون من النوع المحبّ للروايات، يمكنني قراءة 5روايات قصيرة دفعة واحدة، على العكس بالنسبة للكتب المليئة بالأحداث والتواريخ والمعلومات الدسمة! (أجبت)

- منَ الجميل أن تقرأ في المجال الذي تُحبه ولكن ليس كلّ ما تحبّه مفيد لك بالضرورة، التنوّع في القراءة أمرٌ جيد. (قال فهمي)
- صدقتَ يا صديقي. (قلت)
- هل يمكن القول أنّ قراءتك للروايات هي التي جعلَت منك روائياً مشهوراً!؟ (قال سفيان)
- دعك منَ المبالغة يا صديقي، وأخبرني... ما قصة هذه الجامعة؟
- جامعة القرويين، تقع في مدينة فاس في المغرب، وهي أول وأقدم جامعة في العالم في الأساس. كانت هذه الجامعة عبارة عن مسجد كبير (جامع) وقد تأسس عام 245هـ على يد السيدة فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني وهي مستمرة منذ 1160سنة تقريباً. أما فاطمة بنت محمد الفهرية القرشية فنسبها يعود إلى البطل المسلم الفاتح عقبة بن نافع القرشي صاحب الفتوحات في القارة الأفريقية. وتشير المراجع إلى أن فاطمة الفهرية نذرت لله أن تصوم إلى أن يكتمل بناء المسجد، فأنفقت إلى أن اكتمل. (أجاب سفيان)
- عظيم. عظيم. إنه تاريخنا المشرق. حدثوني كيف دخل الإسلام إلى هنا يا رفاق؟
- فتحُ المسلمين للمغرب العربي استمر ما يقرب من ستة وستون عاماً، كانت البداية في عهد الفاروق الذي فتحَت

جيوشه 'بُرقة' و 'طرابلس الشرق'، وفي عهد عثمان بن عفان – رضي اللّه عنه – كذلك فتح المسلمون مدينة 'أفريقيا الرومية'، واستمرت الفتوحات حتى دخلتْ مدن المغرب العربي في الإسلام كاملة في عهد الوليد بن عبد الملك. وإذا أردتَ التوسع أكثر يا صديقي عليك بقراءة كتاب "الفتح الإسلامي لبلاد المغرب" لـ "رشيد بورويبة". (قال فهمي)

- رحمَ اللّه أبطال الأمة. إذا كان لديك صديق تاريخي فلا داعي لقراءة كتب التاريخ، يكفي أنْ تحادثه لتشعر وكأنك تقرأ ! (قلت)

في صباح اليوم التالي، رفض موظف الاستقبال أنْ يأخذ إيجار اليوم الذي نزلنا فيه، وبعد الكثير من الأخذ والردّ شكرنا له كرمه وأخلاقه العالية وسلّمنا عليه ثم حملنا حقائبنا مغادرين الفندق باتجاه الميناء.

- لقدْ زرتُ بلداناً عدة لكنني لم أجد أكرم من الشعب المغربي يا شباب. (قال سفيان)
- نعم. نعم. الشعب المغربي معروف ومشهود له بكرمه. (قال فهمي).

وصلنا إلى الميناء، كان كل شيء مرتباً وجاهزاً، أعطينا الإثبات اللازم، وصعدنا 'العبّارة' باتجاه جبل طارق.

- هل استخدم طارق بن زياد هذا الميناء عند فتح الأندلس؟ (سألت)

- بعض كتب التاريخ تقول أنه استخدمه، وكذلك الكثير من الخرائط المحفوظة التي توضح سير الجيش تُشير إلى أنّ الانطلاقة كانت من هنا. (رد فهمي)
- إنه لأمر عظيم أن نسير في ذات الطريق الذي سار به قائد عظيم مثله، كتب اللّه لنا أنْ نسير فيه فاتحين. (قلت)
- آمين يا صديقي. (قال فهمي)
- من خلال دراستك للتاريخ، ماهي الدوافع التي كانت لدى المسلمين لفتح الاندلس؟ (سألت)
- الدوافع والأسباب كثيرة يا بليغ، وأولها رغبة المسلمين في نشر الإسلام وإيصاله لأبعد نقطة في المعمورة. أيضاً كانَ حلّا لمشاكل المغرب الإسلامي وحماية له من مخاطر أيّ هجوم قد يأتيه من البحر. كذلك دخول البربر في الإسلام وتوقِهم للجهاد. أيضاً الأرض الخصبة للأندلس ورغبة الدولة الأموية في الاستفادة من خيراتها أعتقد كان له دور في ذلك، وأخيراً الحالة التي وصل إليها سكان تلك البلاد والخلاف الذي نشأ بين والي سبتة الرومي 'يُوليان' والملك 'لذريق' عقب جريمة أخلاقية مشهورة للأخير ذكرتها كتب التاريخ. الأمر الذي جعلَ الوالي يوليان يساعد المسلمين على الدخول إلى تلك الأراضي، وقد كانت السفن التي أقّلتْ أول دفعة من جيش الإسلام سفن تجارية تابعة لحاكم سبتة. (أجاب فهمي)

- عظيم. عظيم. قلتُها سابقاً وأكررها: "السفر معك ممتعٌ جداً يا صديقي". انظر. لقد شردَ ثانية! (قلت)
- سفيان. سفيان. (نادى فهمي)
- نعم دكتور! (قال سفيان وقد قطعنا عليه شروده)
- أين سرحتَ هكذا؟ (سأل فهمي)
- لقد تخيلتُ نفسي جندياً من الجنود الذين فتحوا الأندلس تحت قيادة القائد طارق بن زياد، يا اللّه! إنه شعور رهيب. تخيلتُ نفسي وأنا ضمن المجموعة التي أرسلها القائد موسى بن نصير لاستكشاف البلاد، أكملنا مهمتنا وها نحن ننتظر قدوم القائد. ها هو يقبل وهو يخوض أمواج البحر العاتية. يا لعظمته! القائد الفذ الذي يجهل عنه الناس أكثر مما يعلمون. يعلمون حنكته وقوته وبأسه، ويجهلون تواضعه وشجاعته وإنسانيته. ها هو يتقدم ويُلقي علينا خطبته المشهورة ويبشرنا برؤيته للرسول ﷺ في منامه وبالنصر. ثم ننطلق فنفتح البلاد. (قال سفيان)

بعد ساعتين كنا في مطار جبل طارق.

- دكتور. هل سيأتي صديقك إلى هنا؟ (سألت)
- نعم يا بليغ لقد قام بتجهيز كل شيء، سنسافر سوياً إلى غرناطة. (أجاب فهمي)
- سيوفر علينا الجهد والوقت، جزاه اللّه خيراً. (قال سفيان)

أحمد عبدالصمد صديق الدكتور فهمي، شاب تونسي مقيم في إسبانيا، تواصل الدكتور فهمي معه قبل وأثناء الرحلة، سيرافقنا في سفرنا إلى غرناطة. وبحكم معرفته بأماكن وشوارع ولغة البلد سيكون صديقنا ودليلنا. جاء أحمد وحان موعد الرحلة، وها نحن في مطار غرناطة الذي يبعد 12كيلومتر عن وسط المدينة.

- إلى أينَ الآن يا أحمد؟ (سأل فهمي)
- إلى فندق 'ميليا غرناطة' (رد أحمد)
- لماذا هذا الفندق بالذات؟ (سأل فهمي)
- ستعرف عندما نصل! (أجاب أحمد)

❖❖❖

- وأخيراً! لقد تعبتُ منَ الترحال! (قلت)
- مازلنا في البداية يا صديقي! (قال أحمد)
- صحيح. لكن على الأقل سنرتاح قبل الإكمال! (قلت)
- لم يسعفنا الوقت للتعرف عليكم بشكل أفضل. ألا تُعرفني على أصدقائك يا دكتور! (قال أحمد)
- هذا "الأستاذ سفيان" مُعيد في جامعة حضرموت "في كلية العلوم السياسية"، وهذا "البليغ" اسمه يكفي للتعريف عنه! (قال فهمي)
- أسعدتني معرفتكما حقاً. (قال أحمد)
- وهما أيضا سعيدان بمعرفتك! ارتح قليلاً يا أحمد، ودعْنا نرتاح. (قال فهمي مازحاً)

- ليس لدينا وقت للراحة يا صديقي! ثم هل جئتم من اليمن هكذا بأيدٍ فارغة! ماذا أحضرتم لنا؟! (سأل أحمد مازحاً)
- أحضرنا ما لذّ وطاب!... (قال فهمي)

ومِتُّ موتةً صغرى!

❖❖❖

صحوتُ على أصوات الشباب وهم يتبادلون الحديث:

- على الرغم من المحاولات الكثيرة لطمس الحضارة الإسلامية إلا أنّ المدينة ما زالت محتفظة بطابعها المعماري. إنك تشعر وأنت تتمشى بين أزقتها كأنك في تلك الحقبة من التاريخ. (قال أحمد)
- لماذا مازلنا جلوساً؟ إنني في شوق عارم للتجول في شوارع المدينة! (قال سفيان)
- هل ستتجول بدوني يا أستاذ؟! (قلت)
- أخيراً صحوت! لقد شككتُ بأنك ميت! لولا صعود صدرك وهبوطه لأكدتُ الأمر! أي قلبٍ تملك يا رجل؟! (قال فهمي واستغرق الجميع في الضحك!)
- هاتفك لم يهدأ منذ مدة، انظر... ربما كان الأمر مهماً! (قال سفيان)
- يا إلهي إنها أمّ برهان! لقد اتصلتْ كثيراً. لسوف تُوبّخني الآن، معذرةً يا رفاق، أكملوا حديثكم ريثما أعود! (قلتُ وأنا أتجه إلى الشرفة)

- إنها المـــرأة اليمنيـــة الحازمـــة! (قال أحمد واستغرقنا في الضحك)

❖❖❖

- أينَ وصلتم؟ (سألت)
- ادْنُ يا بليغ. انظروا. نحن هنا. هنا قصر الحمراء، هنا كاتدرائية غرناطة، هنا جنة العريف، هنا حي البيازين، هنـا متحـف غرناطـة الأثـري، وهنـا مركـز المدينـة، بالمختصر... لقد اخترت هذا الفندق لقربه منَ الأماكن التاريخية. (قال أحمد وهو يشير إلى الأماكن في الخريطة)
- عظيم. عظيم. هل يمكنكَ ترتيبها حسب الأقرب؟ (سأل فهمي)
- تعتبر كاتدرائية غرناطة أقرب الأماكن إلينا، فهي تبعد 600متر تقريباً من هنا ويمكننا الذهاب سيراً على الأقدام لنشاهد المدينة إذا أحببتم. (أجاب أحمد)
- يروقُني هذا كثيراً. (قال سفيان متحمساً)
- ثم يأتي بعدها قصر الحمراء، الذي يبعد ما يزيد عن الكيلو متر، ثم يأتي إلى جواره قصر جنة العريف أما حي البيازين فيبعد بمقدار 2كيلو متر تنقص أو تزيد، وكذلك متحف غرناطة الأثري. (قال أحمد)
- لقد أحسنتَ اختيار الفندق. حسناً. سنبدأ منْ كاتدرائية غرناطة. غداً صباحاً سننطلق. (قال فهمي)

- على بركة الله. (قال أحمد)
- أحمد. هل حصلت على الهدايا؟ (سألت)
- نعم. نعم. بقيتَ أنت. فقد كنتَ غارقاً في أحلامك السعيدة! (أجاب ضاحكاً)
- هل يمكنني أنْ أعرف ماذا أهدياك؟ (سألت)
- الدكتور فهمي أهداني 'سمناً وبُناً' يمنيَيْن، وكذلك شيءٌ آخر قال لي أنه لا تخلو أي مائدة في عدن منه. (قال أحمد)
- نعم. نعم. 'العُشّار'[1]. ماذا عن أخينا هذا! (سألتُ مشيراً إلى سفيان)
- أما الأستاذ سفيان فقد أهداني كيلوَين من العسل اليمني الشهيّ، كنت أسمع الجميع يتحدثون عن جودة العسل اليمني، لكن لم أجربه من قبل. (قال أحمد)
- العسل اليمني وخاصة 'الحضرمي' "نسبة إلى حضرموت محافظة الأستاذ سفيان" يعتبر من أجود أنواع العسل في العالم وتتنوع أصناف العسل في حضرموت بتنوع الأشجار والمواسم التي ينتج منها النحل العسل. يسمى العسل المنتج من أشجار السدر بعسل "مرية" وهي أشجار شوكية منتشرة في الوديان والجبال بصورة كبيرة ولهذا تشتهر

(1) عشار الليمون الحامض. عملية صنع العشار – المخلل – عملية صعبة جداً وتحتاج لأيام طويلة. يتم فتح الليمون ويُحشى بالملح ويوضع بداخل علبة ثم توضع العلبة في مكان منعزل تحت أشعة الشمس، مع التقليب المستمر كل يوم، وعندما ينضج الليمون يتم سكب الخل في العلبة التي يوجد فيها بالإضافة إلى 'البسباس الأحمر' والحبة السوداء.

مدينة دوعن بهذا النوع من العسل اللذيذ. يُطلق على وادي حضرموت مسمى "وادي العسل" نظراً لاشتهاره بإنتاج هذه المادة الغذائية، التي تنتج مرابع حضرموت أجود أنواعها وخاصة مرابع وادي دوعن، ويعتبر عسل السدر الأغلى في العالم والأفضل على الإطلاق، حيث يتميز برائحته الزكية ولونه الذي يكون فاتحاً في فترة جنيه، كما يتميز من بين جميع الأنواع الأخرى بمذاق رائع. (قلت)

- جميل. لكنك أسهبتَ في الحديث عن العسل، ونسيت أمر الهدية! (قال أحمد مازحاً)
- لمْ أنسَ يا صديقي. انتظر دقيقة... (أحضرتُ ظرفاً) انظر ماذا أحضرت لك. هذا الجزء الثالث من سلسلة 'قُدوات' للأستاذ سفيان باوزير، وهذا كتاب 'بين القراءة والكتابة' للدكتور فهمي عبد المعز، وهذه روايتي الأخيرة!
- يا اللّه! إنها منْ أجمل الهدايا التي وصلتني. هكذا لنْ أفتقدكم حين تعودون إلى اليمن، سترافقني كتبكم في كل الأماكن، وستظل أحرفكم تذكرني بكم، شكراً جزيلاً لكم جميعاً. (قال أحمد)
- على الرّحب والسعة أخي العزيز. من الجيد أنك موجود. (قلت)

في الصباح، تناولنا إفطارنا ثم أخذنا أمتعتنا وغادرنا الفندق باتجاه 'كاتدرائية غرناطة'، وبينما نحنُ في الطريق، وجّه أحمد حديثه إلى فهمي:

- حدثنا بشكل مختصر عن هذه المدينة.
- غرناطة أو إغرناطة أو الرمانة: هو اسم قديم أطلقه الرومان ومن بعدهم القوط على هذه المدينة التي كانت قرية صغيرة محاطة بغابات من أشجار الرمان. تعددت الثقافات وتوالت الحضارات على هذه البقعة من الأرض، لكن ما منحها الخلود هو التواجد الإسلامي في شبه جزيرة إيبريا، فتحولت من قرية صغيرة تابعة لمدينة إلبيرة إلى مدينة عريقة ثرية. (قال فهمي)
- لقد كنت أتساءل لماذا تسمى رمانة الجنة؟! (قلت)
- ماذا عن 'كاتدرائية غرناطة' (سأل سفيان)
- تعد هذه الكاتدرائية من أشهر معالم غرناطة في الوقت الحالي حيث تمتاز بتصميم معماري رائع جداً يجمع بين الطراز الباروكي والقوطي والنهضوي. ومع الأسف فقد تم بناء هذه التحفة فوق مسجد غرناطة الشهير الذي بناه بنو الأحمر. (قال فهمي)
- حسبنا الله ونعم الوكيل. وكأنهم يريدون الانتقام منا لأننا حولنا آيا صوفيا إلى مسجد. (قلت)
- ربما يكون انتقاماً، لكن هناك فرق كبير يا صديقي، فمحمد الفاتح لم يقتل أحداً عندما فتح اسطنبول، بينما أولئك قتلوا الكثير والكثير في محاكم التفتيش الشنيعة، ثم حولوا المساجد إلى كنائس. وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الحقد الذي يملأ صدورهم. (قال فهمي)

- فعلاً. (قال سفيان)
- ها قد وصلنا. رغم أنها كاتدرائية لكنني أقف احتراماً لهذه التحفة المعمارية مهما كانت أعمالها في الداخل. (قال أحمد)
- هذه الكاتدرائية استمر بناءها حوالي 180عاماً!! وهذا الوقت الطويل لم يكن نتاجه إلا مبنى مذهل ومصمم بدقة وحِرفية. (قال فهمي)
- شيء مذهل حقاً، 180عاماً!! أكادُ لا أصدق. (قال سفيان)
- صدّق يا صديقي، ومتّع ناظريك، فقد لا نراها ثانيةً! (قلت).

بعد التجول في الكاتدرائية توجهنا لصلاة الظهر في أحد المساجد الصغيرة المخصصة للجالية المسلمة هناك، ثم تناولنا 'الغداء' في أحد المطاعم الحلال التي دلنا عليه أحمد، وكذلك الرمان التي تشتهر به المدينة، ثم عدنا إلى الفندق. في المساء وبعد التشاور، قررنا الذهاب إلى متحف غرناطة الأثري، والذي يعتبر من أهم المعالم السياحية في المدينة، ويعود ذلك إلى أنه يضم الكثير من القطع الأثرية النادرة، ويقع المتحف في قصر تاريخي يعود إلى القرن السادس عشر الميلادي ويتكون من طابقين، يُعرض فيهما الحضارات العديدة التي حكمت المنطقة من ضمنها: الحضارة الرومانية والفينيقية والقرطاجية والإسلامية وغيرها. وصلنا إلى المتحف، رأينا الإبداع، التصميم، العديد من الدول، الكثير من السياح، والكثير من التاريخ. التقطنا صوراً للذكرى كالعادة ثم عدنا.

- لقد كانَ يوماً حافلاً بالتاريخ! (قال سفيان)
- صحيح. وكل أيام الرحلة ستكون كذلك. أنتَ في رمانة الجنة! (قال فهمي)

❖❖❖

- لقد أرسلتُ لك الصور. هل شاهدتها؟
- نعم شاهدتها. إنها جميلة.
- عندما تكبر سنزورها سوياً مرة أخرى إن شاء اللّه.
- إنْ شاء اللّه يا بابا.
- والآن إلى اللقاء. أحبكَ كثيراً.
- أنا أيضا أحبك.

❖❖❖

- بليغ. أقبل. (نادى أحمد)
- قلْ لي يا صديقي! (قلت)
- من هذا الذي تتحدث معه منذ نصف ساعة؟ (سأل أحمد)
- هذا ولدي برهان! (أجبت)
- ما شاء اللّه تبارك اللّه، إنه يتحدث بطلاقة، كم سنة لديه ما شاء اللّه ؟ (سأل أحمد)
- يقرب من السادسة. (أجبت)
- إنه طفل غير عادي، يجب عليك الاهتمام به وبتعليمه. (قال أحمد)

- إن شاء الله. شكراً لنصحك. بالمناسبة... هذا الذي يجلس بجانبك كان في سن الخامسة يفتح الكتاب ويقرأ بكل طلاقة! (قلت)
- سفيان!؟ (سأل أحمد مندهشاً)
- نعم سفيان! حدثه عن طفولتك يا أستاذ! (قلت)
- في الحقيقة لا أحبّ أنْ أتحدث كثيراً في هذا الموضوع، لكنني سأتحدث لأجلك يا أحمد. عندما أتحدث عن طفولتي يقودني الحديث دائماً إلى أمي العظيمة، لقد فرّغَتْ نفسها لأجلي. كانت تعلمني القراءة والكتابة وأنا دون الخامسة، لدرجة أنني لن أكون مبالغاً إنْ قلتُ أنها كانت تقف فوق رأسي 24ساعة تعلمني نطق وكتابة الحروف، فتعلمت القراءة والكتابة قبل أقراني. ولا أنسى والدي أيضاً فقد كان يقرأ لي قصصاً دينية وتاريخية قبل النوم، ويقرأ بعض آيات من القرآن فأثّر ذلك فيّ تأثيراً كبيراً. (قال سفيان)
- صدق الشاعر حينما قال:

"الأم مدرسة إذا أعددتها ❖❖❖ أعددتَ شعبا طيب الأعراق".

(قال أحمد)

- هل عرفتَ الآن لمَ يتحدث برهان بهذه الطلاقة؟ إنها الأم. أنصحك باختيار الشريكة المناسبة يا صديقي! (قلت ملاطفاً أحمد)
- أينَ الدكتور فهمي؟ (سأل سفيان)

- إنه يتحدث مع خاله الأمير. لقد سلّمه إدارة المؤسسة قبل الرحلة. إنّه يتابع سير العمل. (أجبت)
- ها قد أتى. (قال أحمد)
- لماذا لا تنامون؟ غداً لدينا الكثير من الأشياء التي سنقوم بها. (قال فهمي)
- معك حق. هيا بنا يا شباب. (قال سفيان)

في الصباح، توجهنا إلى حي البيازين، وهو حيّ ذو أصلٍ أندلسيّ، يُعد وجهة أساسية للكثير من الزوار الذين يقصدونه لمكانته التاريخية والمعمارية ولمناظره الطبيعية. يقال أنّ بناء هذا الحي كان قبل سنة 800ميلادية، أي في العصور القديمة، وفي عهد بنو الأحمر حدث تطوير كبير للحيّ الذي يتميز بشوارعه الضيقة والمرتبة على شكل شبكة تمتد من أعلى المدينة إلى أسفلها عند النهر، الأمر الذي جعل اليونسكو بعد كل هذه السنين تدرجه ضمن مواقع التراث العالمي.

- ما رأيكم، هل نزور جنة العريف، أم قصر الحمراء، أم المكانين؟ كلاهما في نفس الاتجاه. (سأل أحمد)
- كما تشاؤون. (قلت)
- بقي لدينا يومان. أرى أن نؤجل أحدهما إلى الغد. (قال سفيان)
- أنا أتفق مع سفيان، وأرى أنْ نؤجل زيارة قصر الحمراء ليكون مسك الختام في رحلتنا. (قال فهمي)

- حسناً إذن. هيا إلى الجنة! (قال أحمد)

'جنة العريف' عبارة عن قصر يقع بالقرب من قصر الحمراء ويبعد عنه مسافة كيلو متر واحد شُيّد في أواخر القرن الثالث عشر الميلادي، اتخذه ملوك غرناطة منتزهاً للراحة والاستجمام. يقال أنّه بني في عهد ثاني سلاطين النصريين السلطان محمد الثاني (1273-1302م)، وتشير إحدى النقوش أنه تم إعادة تشكيلها وزخرفتها سنة1319م في عهد الملك أبو الوليد إسماعيل. أجريت فيه العديد من الترميمات والتعديلات خلال الفترة المسيحية، مما أدى إلى طمس الكثير من الملامح الأصلية لجنة العريف والتي كانت تعود للحقبة الإسلامية في الأندلس. انتهينا من جنة العريف ثم عدنا إلى ميليا غرناطة! في صباح اليوم الثالث زرنا قصر الحمراء، تذكرتُ عند رؤيته أبياتاً للشاعر محمود غنيم منها:

بالله سَل خلفَ بحرِ الرومِ عن عـربٍ ❖ بالأمس كانوا هنا، ما بالهم تاهوا؟
فإن تراءت لكَ الحمـــراء عن كثبٍ ❖ فسائـلِ الصـرح، أين المجد والجاه؟

لفتت نظري جملة منقوشة في أغلب الجدران الداخلية للقصر. وهي "لا غالب إلا الله".

- ها نحن أمام أعظم قصور الدنيا! (قال أحمد)
- دكتور فهمي. حدثنا عن قصر الحمراء! (قلت)
- قصرُ الحمراء هو قصرٌ أَثري وحصن شَيّده الملك المسلم أبو عبد الله محمد الأول محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن نصر بن الأحمر. يعد الآن من أهم المعالم السياحية في

إسبانيا. تعود بداية تشييد قصرِ الحمراء إلى القرن الرابع الهجري، الموافق للقرن العاشر الميلادي، وترجع بعض أجزائه إلى القرن السابع الهجري الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي. وقد استغرق بناءه أكثر من 150سنة. (قال فهمي)

- 150سنة!! أعجوبة أخرى جديدة في هذه المدينة. (قلت)
- انظروا. إنّ سِمات العمارة الإسلامية واضحة في أبنية القصر؛ استخدام العناصر الزُخرفية الرقيقة في تنظيمات هندسية كزخارف السجاد، وكتابة الآيات القرآنية والأدعية، بل حتى المدائح والأوصاف من نظم الشعراء. (قال فهمي)
- مدهش فعلاً كل هذه الدقة في الزخرفة. لقد كانت لدينا حضارة عريقة. (قال سفيان)
- ما سبب تسميته بقصر الحمراء؟ هل نسبة لبني الأحمر؟ (سألت)
- ثمة خلاف بشأن سبب تسمية هذا المعلم البارز باسم قصر الحمراء، فهناك من يرى أنه مشتق من بني الأحمر، وهم بنو نصر الذين كانوا يحكمون غرناطة، بينما يرى آخرون أنّ التسمية تعود إلى التربة الحمراء التي يمتاز بها التل الذي تم تشييده عليها. ومن التفسيرات الأخرى للتسمية أن بعض القلاع المجاورة له كانت تعرف منذ نهاية القرن الثالث الهجري، الموافق للقرن التاسع الميلادي؛ باسم المدينة الحمراء. (قال فهمي)

- عظيم. تعالوا نتأمل! (قال سفيان)

عدنا في الظهيرة إلى الفندق وقد قررنا العودة إلى ساحة 'بلازا دي سان نيقولاس'، لمشاهدة غروب الشمس عند قصر الحمراء. قال أحدهم: "لا يتشابه اثنان في هذا العالم، شخصٌ شاهد غروب الشمس على قصر الحمراء وشخصٌ لم يشاهده!" ويقول المثل الإسباني: "ليس في الحياة أقسى منْ أنْ يكون المرء أعمىً في غرناطة". كنا هناك قبل الغروب، "هذه الساحة هي أجمل نقطة للتمتع بمشهد الغروب وهو يلاطفْ قصر الحمراء" شهدنا غروب الشمس، تأملنا روعة المنظر، تذكرتُ قصيدة 'الفردوس المفقود' للشاعر السوداني محمد أحمد المحجوب فأنشدتُ منها :

نزلتُ شَطـــكِ، بعدَ البينِ ولهانا ❖ فـذقتُ فيــكِ من التبريحِ ألوانا
وسِرتُ فيــكِ، غريباً ضلَّ سامرُهُ ❖ داراً وشوْقـــاً وأحبابــاً وإخوانا
فلا اللسانُ لسانُ العُـــرْب نَعْرِفُهُ ❖ ولا الزمانُ كما كنّا وما كانا
ولا الخمائــلُ تُشْجينــا بــلابِلُها ❖ ولا النخيلُ، سقاهُ الطَّلُّ، يلقانــا
ولا المساجــدُ يسعــى في مآذِنِها ❖ مع العشيّــاتِ صــوتُ اللّهِ رَيّانا

تابع الدكتور فهمي بعد أنْ سمعَ حشرجةً في حلقي :

تلكَ السمــاواتُ كُنّاها نُجمّلُهــا ❖ بالحُــبِّ حيناً وبالعلياء أحيــانا
فـرْدَوسُ مجدٍ أضاعَ الخَلْفُ رَوْعَتَـهُ ❖ من بعدِ ما كانَ للإســلامِ عنوانا
أبا الــوليدِ أعِنِّــي ضــاعَ تالــدُنا ❖ وقــد تَنــاوحَ أحجــاراً وجُــدرانا
هذي فلسطينُ كادتْ، والوغى دولٌ ❖ تكونُ أندلساً أخــرى وأحــزانا
كنّا سُراةً تُخيف الكـونَ وحدتُنــا ❖ واليومَ صرْنا لأهـلِ الشركِ عُبدانا

وأكمل الأستاذ سفيان:

نغدو على الـــذلِّ، أحزابـاً مُفرَّقةً ❖ ونحن كنّا لحـــزب اللّهِ فرسانا
رماحُنا في جبين الشمسِ مُشرَعـــةٌ ❖ والأرضُ كانت لخيلِ العُـرب ميدانا
أبا الوليدِ، عَقَـــدْنا العـــزمَ أنّ لنا ❖ في غَمـــرةِ الثأرِ ميعـاداً وبرهانا
الجـــرحُ وحّـــدَنا، والثأرُ جَمّعنـــا ❖ للنصـــر فيـــه إراداتٍ ووجـــدانا
لهفي على القدسِ في البأساء داميـةً ❖ نفديكِ يا قدسُ أرواحاً وأبـــدانا
سنجعل الأرضَ بركـــاناً نُفجّـــرهُ ❖ في وجه باغٍ يـــراه اللّهُ شيطـــانا
ويُنتسى العارُ في رأد الضحـــى فَنَرى ❖ أنَّ العروبـــةَ تبني مجدَها الآنا

حلّ الظلام، وعدنا باتجاه الفندق. لحظات الوداع صعبة جداً، سواءً كان المودَّع شخصاً أو وطناً. خلال رحلتي الأولى مع الدكتور فهمي إلى اسطنبول، عرفتُ أنّ لديه قلباً مرهفاً وأنّ دموعه قريبة جداً، وكان هذا الأمر يؤثر فيّ إذ لا أستطيع مواساته. في الفندق شردَ الدكتور.

- هل انتقلتْ عدوى سفيان إليك، أينَ شردت؟! (قلت)
- يبدو أنه اشتاق إلى عدن! (قال أحمد)
- أعتـذر يا أصدقائي، ولكنني تذكـرت أن هذا المكـان ملكنا نحن وها نحن نأتي إليه كسياح فقط، ونغادر وكأنه ليس ملكنا. لكن دعونا نبكي كالنساء على ملكٍ لم نحافظ عليه كالرجال. (قال فهمي ودموعه تترقرق)
- .....

ثم أردف قائلا:

- لقد سقطتْ غرناطة في (2ربيع الأول897هـ الموافق 2يناير1492م) بتسليم الملك أبو عبد اللّٰه محمد الصغير إياها إلى الملك فرديناند الخامس بعد حصار خانق دام 9أشهر. بعد أنْ دبّ الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرى الوهن في أطرافها، راح العدو القشتالي يتربص بها، وينتظر تلك اللحظة التي ينقضّ فيها على الجسد الواهن، فيمزقه ويقضي عليه. لم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولايات الأندلس الشرقية والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة، وبلنسية، وإشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علماً وثقافة وحضارة. لم يبق من دولة الإسلام هناك سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عُرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام لأكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان: "فرديناند الخامس" و "إيزابيلا"، وحاصرا بقواتهما غرناطة في (12جمادى الآخرة896هـ الموافق 30أبريل1491م) حصاراً شديداً، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا أي اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن

أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى؛ حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس. مرّ أهالي غرناطة بمعاناةٍ قاسية جراء الحصار، فقد قامت القوات الإسبانية بحرق الحقول المجاورة للمدينة، ما تسبب في مجاعة قاسية بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب وحتى القطط.

توقف الدكتور فهمي وأخذ نفساً عميقاً ثم تابع:

- لم تكن غرناطة تملك سلاحاً أقوى من الشجاعة ولا أمضى من الصبر في المواجهة، والثبات عند اللقاء، فصمدت إلى حين، وظلت المدينة تعاني الحصار زهاء سبعة أشهر، وتغالب نكباته في صبر ويقين، وتواجه الجوع والبلاء بعزيمة لا تلين، وحاول الفرسان المسلمون أن يدفعوا هجمة النصارى الشرسة بكل ما يملكون خارج أسوار المدينة، لكن ذلك لم يغنِ من الأمر شيئا، فالأحوال تزداد سوءا، والمسلمون تتفاقم محنتهم، وانقطع الأمل في نجدتهم من بلاد المغرب. وزع فرديناند وإيزابيلا ثلاثين ألف رجل على الحقول التي تمد غرناطة بالغذاء ليكتسحوها. فأتلفت الطواحين ومخازن الغلال ودور الفلاحين والكروم وغياض الزيتون والبرتقال، وحوصرت مالقة ليمنعوها من تلقي وإرسال المؤن وصمدت مالقة للحصار حتى أكل سكانها كل ما تقع عليه أيديهم من الخيل والكلاب والقطط،

وكانوا يموتون بالمئات من الجوع أو المرض. وأرغمها فرديناند على أنْ تسلم بلا قيد ولا شرط، واستعبد الأثني عشر ألفاً الذين بقوا من سكانها، وسمح للأغنياء منهم بأن يفتدوا أنفسهم بتسليم كل ما يملكونه. واستسلم الزغل[1] وأصبح إقليم غرناطة بأسره خارج العاصمة في أيدي المسيحيين. وشيد الملكان الكاثوليكيان فسطاطاً كاملاً لجندهم حول القلعة المحاصرة، وأطلقوا عليه اسم سانتا فيه، وانتظروا أن يموت أهلها جوعاً، ليجعلا مفخرة الأندلس تحت رحمتهما، وخرج الفرسان المسلمون من غرناطة، يطلبون مبارزة فرسان الإسبان فرداً لفرد، واستجاب هؤلاء بعزم مماثل، بيد أن فرديناند لما رأى خيرة محاربيه يُقتلون واحداً تلو الآخر، على أساس خطة الفروسية هذه، وضع حداً لتلك المبارزة، وقاد أبو عبد الله[2] قواته في هجوم يائس، فرّدوا على أعقابهم وأنفذت الرسائل تطلب العون من السلطان العثماني والمصري، ولم

(1) الزغل: هو أبو عبد الله محمد الثالث عشر وهو محمد بن سعد بن علي من قبيلة بني الأحمر يعرف بالزغرل ولقبه النصارى "الباسل"، حكم لمدة عامين ثم دخل في صراع مع ابن أخيه أبو عبد الله محمد الثاني عشر مما جعله يفقد الحكم لصالح ابن أخيه.

(2) أبو عبدالله: هو أبو عبدالله محمد الثاني عشر وهو محمد بن علي بن سعد بن علي من قبيلة بني الأحمر، وحكم على فترتين، فترة قبل عمه الزغرل، وفترة بعد المشاكل التي حصلت مع عمه، وهو الذي سلم مفاتيح غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس للمسيحيين.

يتلقوا شيئاً، فقد كان العالم الإسلامي منقسماً على نفسه كالعالم المسيحي.....

صب الدكتور ماء في الكوب وشرب ثم أردف قائلاً:

- لم يجد أبو عبد الله بداً من توقيع شروط التسليم التي أسبغت شرفاً نادراً على الفاتحين. ذلك لأنه سمح لأهل غرناطة أن يحتفظوا بمالهم ولغتهم وزيهم ودينهم وشعائرهم، ولهم أن يحتكموا إلى شريعتهم وقضائهم ولا تفرض عليهم ضرائب إلا بعد ثلاث سنوات، وعند ذلك يؤخذ منهم ما كان يجبيه الحكام المسلمون، وكان على المدينة أن تفتح أبوابها لاحتلال الإسبان، وللمسلمين حق الهجرة من المدينة إذا شاءوا، ويجب أن توفر وسائل المواصلات لمن يرغب في العبور إلى أفريقية الإسلامية. في ظل هذه المحنة القاسية تداعت أصوات بعض القادة إلى ضرورة التسليم؛ حفاظا على الأرواح، وكان "أبو عبد الله محمد" سلطان غرناطة وبعض وزرائه يتزعمون هذه الدعوى، وضاع في زحام تلك الدعوة المتخاذلة كل صوت يستصرخ البطولة والفداء في النفوس، ويعظّم قيمة التضحية والكرامة في القلوب، فاتفق كبار غرناطة على اختيار الوزير 'أبي القاسم عبد الملك' للقيام بمهمة التفاوض مع الملكين الكاثوليكيين. استمرت المفاوضات بضعة أسابيع، وانتهى الفريقان إلى وضع معاهدة للتسليم، وافق عليها الملكان في

(21محرم897هـ الموافق 25نوفمبر1491م) وكانت المفاوضات تجري في سريةٍ تامةٍ خشية ثورة أهالي غرناطة، وحتى تحقق غايتها المرجوة. وما كادت تذاع أنباء الموافقة على تسليم غرناطة حتى عمّ الحزن ربوعها، واكتسحت الكآبة نفوس الناس، واشتعل الناس غضبا حين تسربت أنباء المعاهدة السرية، وما حققه السلطان وخاصته من مغانم ومكاسب رخيصة، فسرَت بين الناس دعوة الدفاع عن المدينة، وخشي السلطان من تفاقم الأحوال وإفلات الأمر من بين يديه، فاتفق مع ملك قشتالة على تسليم المدينة قبل الموعد المحدد في (2ربيع الأول897هـ الموافق 2يناير1492م). ومع ذلك فقد احتج أهل غرناطة على استسلام أبى عبد الله. وتهددته الثورة حتى دفع بمفاتيح المدينة إلى فرديناند (2يناير1492م) وركب مع أقاربه وفرسانه الخمسين، وسط صفوف المسيحيين، إلى إمارته الجبلية الصغيرة التي كان عليه أن يحكمها تابعاً لقشتالة، ومن فوق الصخور الشمّاء التي عبر عليها ، ألقى نظرة أخيرة على المدينة الرائعة التي فقدها، وأنّبتهُ أمه على بكائه قائلة " أبكِ كالنساء ملكاً لم تحافظ عليه كالرجال".

ودخل في الوقت نفسه الجيش الإسباني إلى المدينة. ورفع الكاردينال مندوزا صليباً فضياً عظيماً فوق الحمراء، وركع فرديناند وإيزابيلا في ساحة المدينة شكراً لآلهتهم الذي أخرجت الإسلام من إسبانيا بعد ثمانية قرون.

- لا تبكِ يا صديقي. قدّر اللّه وما شاء فعل. إنه وإنْ زال حكم الإسلام لهذه البلاد إلا أنّ الإسلام ما زال حاضراً ، ويَدينُ به الكثير من أبنائها ، واذكر قوله تعالى: ﴿**يُرِيدونَ لِيُطفِئوا نورَ اللَّهِ بِأَفواهِهِم وَاللَّهُ مُتِمُّ نورِهِ وَلَو كَرِهَ الكافِرونَ**﴾ (قال سفيان مواسياً)
- صدق اللّه العظيم. صدقت. صدقت. (قال فهمي وهو يمسح دموعه)
- أعلمُ أنّ الأمر قدْ يبدو صعباً ، ولكن يتوجبُ عليكم النوم ، غداً أمامكم رحلة طويلة. (قال أحمد)
- نعم. نعم. هيا يا رفاق. البكاء لنْ يُفيدنا شيئاً! (قال فهمي)
- لا تقنط يا رفيق! ستعود الديار إلى أصحابها. (قلت ضارباً كتف فهمي بلطف)

في الصباح، ودعنا أحمد في المطار، على أمل أنْ نراه في زيارة إلى اليمن السعيد، استقلينا الطائرة باتجاه مطار ملقا الدولي، ومن هناك إلى مطار القاهرة ثمّ إلى عدن.

❖❖❖

شكراً

لـ مهندس القلوب **فهمي عبد المعز** الذي شجّعني، وساعدني و'تعلّق بياقتي' كما يقولون، حتى كان هذا الكتاب!

لـ الغيث **رأفت الإدريسي**. للشاعرة **نغم علي**. للصديق **أسامة عجلان** الذي ما زالت كلماته التشجيعية تداعب مسامعي. للصديق **محمد البرقي** الذي لم يبخل عليّ يوماً بملاحظة سألته عنها. للصديق **منذر الزيادي** الذي كان من أوائل القراء. للأصدقاء الذينَ قرأوا وعلّقوا وانتقدوا.

لـ الأصدقاء الذين قالوا: "نثق بقلمك" وللأصدقاء الذين قالوا: "أنت مجرد ناسخ!" ولكلً **مجيديّ** أصيل!

لـ كلّ منْ طلب جمع هذه القصص بين دفتي كتاب، ولكلّ من اشترى هذا الكتاب وهو لا يعرفني، وللأصدقاء الذين اشتروهُ مجاملةً.

عن المؤلف

بليغ علي أحمد الطيار. مواليد 1992/12/20م

من محافظة إب/ مديرية فرع العدين/ التصحيح.

نُشرتْ لي قصة 'قهوة عثمانية' ضمن كتاب "ثلاثون كتاباً وكتاب" للكاتب فهمي عبد المعز.

قارئ، أو لعلها مفاخرة!

كاتب، أو ربما هو تسرّعْ!

مُدقّق إملائي ومُراجع لغويّ، أبرأُ منها إلا قليلاً!

وإنْ أردتَ عزيزي القارئ أنْ تعرف شيئاً آخر يمكنك التواصل معي:

- إنستغرام: baleeg7

الفهرس

مقدمة. 9

أحببتها، وبها اكتفيت!. 11

مُهاجر على ظهرِ الموْت 23

سِرّ السعادة 27

أُحُبّها ولكنْ..! 33

رائحة موت. 41

صُدفة 45

كُتُبْ وحُبْ 55

لقاء على قارعة الحلم 61

الأملُ حياةْ 73

حبٌّ أعرج 79

سقوطٌ وَشيْك 87

رُمّانة الأندلسْ. 91

شكراً 121

عن المؤلف 123

الفهرس. 125

تم بحمد الله

هل تريدُ السفرَ وأنتَ في عقر دارك؟
الحلّ هنا!
اربط حزام الأمان، واستعدّ للإقلاع برفقة البليخ!
بدايةً يُصرّحُ من "أمّ الدنيا" عن قاعدة الحبّ الأولى، ثم يذهب إلى سوريا ليصفَ لكَ نقطةً في بحرِ المأساة، ومن هناك ينطلقُ باحثاً عن السعادة في اللامكان، ثم يتجه إلى كندا ومن فانكوفر يتساءل: أيهما أقوى، الحبّ أم الصداقة؟! ليعود بعدها إلى أرض الوطن ويأخذكَ في جولةٍ سريعة بين الشمال والجنوب، ومنْ هناك يتجه شمالاً نحو بلاد الحرمين ليعيش قصة حب، ثم يطير إلى روسيا لينقذ شركةً كانت على وشك الإفلاس، قبل أنْ يعود إلى الوطن في تحضيرٍ لرحلةٍ إلى الفردوس المفقود!